الإصلاح الديني

هل كان هدفاً للحسين(ع)؟

تأليف:
الشيخ محمد شقير العاملي

دار الهادي

الإصـلاح الدينـي

هل كان هدفاً للحسين (ع) ؟

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م

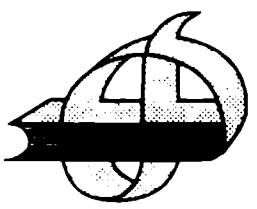

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ ـ ٨٩٦٣٢٩/٠٣ ـ فاكس: ٥٤١١٩٩ ـ ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري ـ بيروت ـ لبنان
Tel.:03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199- P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

الإصلاح الديني

هل كان هدفاً للحسين (ع) ؟

تأليف

الشيخ محمد شقير العاملي

تنقيح

الشيخ وسام شقير

دار الهادي

للطباعة والنشر والتوزيع

الإهداء

إلى والديّ الكريمين

شاكراً لهما فضلهما. . . .

وداعياً لهما بالخير والصحة

اهدي هذا الكتاب. . . .

شكر وتقدير

اتوجه بالشكر إلى كل الذين ساهموا في انتاج هذا الكتاب ،
وخصوصاً الإدارة الكريمة لدار الهادي

مقدمة الكتاب

ان السؤال عن الهدف الذي خرج من أجله الإمام الحسين عليه السلام كان ولا زال سؤالاً اساسياً ومشروعاً قد شغل بال الباحثين فاستنهض عقولهم واستفز اقلامهم ليبينوا الأهداف التي كان يخطط الإمام الحسين عليه السلام لبلوغها والوصول إليها وليبحثوا عن تلك الإنجازات التي استطاعت الثورة الحسينية ان تقدمها.

عندما نريد أن نبحث في الثورة وأهدافها وانجازاتها يجب أن يكون هناك تحديد مسبق للمقدمات او المسلمات التي نمتلكها والتي نريد ان نحاكم على اساسها انجازات الثورة إن القول مثلاً بعصمة الإمام عليه السلام ـ كما هو في مدرسة اهل البيت عليهم السلام ـ بذلك المستوى الذي يشمل اداءه وسلوكه السياسي والاجتماعي ... سوف يؤدي تلقائياً الى القول بعصمة ذلك الأداء السياسي والعسكري الذي اعتمده الإمام الحسين عند خروجه من المدينة واعلانه لثورته وهنا يتحول البحث الى تحديد لتلك الأهداف التي خرج من اجلها الإمام الحسين عليه السلام والإنجازات التي تترتب على شهادته لانه كان يعلم بمصيره وكان يريد من خلال هذه الشهادة ان يحقق مجموعة من الإنجازات التي ما كانت لتتحقق لولا فعل الشهادة.

ان الحديث عن الأهداف ـ الإنجازات هو حديث مهم ويجب ان يشبع بحثاً ولا يمكن الإدعاء انه قد بلغ نصابه، وان الثورة الحسينية قد

افصحت عن اهدافها وتحدثت بيانات الثورة عن جملة اهداف محددة كالاصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومواجهة الظلم...

ان الكثيرين عندما تحدثوا عن قضية الاصلاح فانهم توجهوا إلى الاصلاح الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لكنهم لم يتطرقوا الى قضية الاصلاح الديني او لم تعط حقها المطلوب، فهل كان الإصلاح الديني هدفاً للإمام الحسين عليه السلام؟

إن هذا التساؤل عن الاصلاح الديني يقودنا الى جملة تساؤلات منها ما هو المقصود بمفهوم الاصلاح الديني وهل ان الاصلاح الديني كان هدف الانبياء والائمة عليهم السلام؟ والإمام الحسين عليه السلام عندما خطط لثورته المباركة هل كان يلحظ هذا الجانب من الإصلاح ام لم يكن محل اهتمام منه؟ وكم هو حجم الأهمية المعطاة لهذه الجانب من الإصلاح؟

وأساساً هل كان هناك فساد ديني؟ وهل كان حجم هذا الفساد بالمستوى الذي يستدعي خروج امام معصوم ليقدم نفسه واهل بيته على مذبح الشهادة؟ وهل ان السلطة الأموية كانت تعتني بالمعرفية الدينية؟ وهل ان تلك السلطة كانت تمتلك مشروعها الفكري والثقافي؟ وإذا كان هذا المشروع موجوداً واقعاً فما هي مشخصاته وأدواته؟ وما هو نتاجه؟ وإلى أي مدى استطاعت السلطة الأموية ان تستمر في هذا المشروع؟ وما الذي استطاعت ان تنجزه فيه؟

لاشك ان هذه الأسئلة تثير شهية الباحث للخوض في غمار هذا الموضوع باعتبار انه يبرز جانباً مهماً من المواجهة التي كانت سائدة بين المشروع النبوي متمثلاً بأهل البيت عليهم السلام وبين المشروع الأموي متمثلاً

بالسلطة الأموية انها المواجهة المعرفية بل والدينية اي المواجهة بين المدرسة الفكرية للسلطة وبين المدرسة الفكرية لأهل البيت عليهم السلام بين مدرسة كل شغلها ان تقدم التبرير الديني للأداء السياسي للسلطة وان تبرز التسويغ الإسلامي لكل ما ترتكبه تلك السلطة حتى لو كانت تخالف الدين في العمق وتنتهك الإسلام في الصميم وبين مدرسة تريد ان تصنع النموذج الإسلامي على ضوء الدين وسنة محمد خاتم النبيين صلوات الله عليه وآله اجمعين.

المدرسة الأولى هي صنيعة السلطة ومأجورة لها وتعمل بإمرتها والمدرسة الثانية هي صنيعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعمل طبقاً لما اعدها له ولما حملها من وظيفة وكلفها من مهام.

إن ما انتجته مدرسة السلطة إلى ذاك الوقت هو قدسية الخليفة ومكانته الدينية ودينية كل ما يصدر عنه ونستطيع ان نلحظ في هذا الجانب تلك الألقاب الدينية التي كانت تضفى على الخلفاء الأمويين؛ وكانت السلطة معنية بالديني بقدر كبير أولاً لاقتران السياسي بالديني على مستوى المشروعية وثانياً لأن الديني يمثل قوة في الواقع السياسي والإجتماعي ومن هنا نشأ الخطر حيث استهدفت السلطة المعرفة الدينية والنص الديني ادراكاً منها لدورهما الخطير والكبير وانه مع بقائهما على تلك الصورة التي بلّغها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإنها لن تستطيع ان تبلغ مصالحها او تحافظ على مكتسباتها، ولذا انقضت على الدين متمثلاً بمدرسة أهل البيت عليهم السلام وسعت إلى ضرب رموز تلك المدرسة واسقاطهم على المستوى المعنوي والديني.

إن السلطة الأموية لم تترك وسيلة إلا واستخدمتها، من المال

وشراء ضمائر الرجال وإلى السيف والسم والسجن لكن الوسيلة الأخطر هي الدين نفسه لإنها أخذت تعمل فيه وضعاً ودساً وتحريفاً من جهة ومن جهة اخرى فإنها بسلوكها المتلبس بلباس الدين كانت تقدم صورة مشوهة وقاتمة عن الإسلام ومنفرة منه.

إذا ادركنا حجم ذلك الخطر على الدين والإسلام في تلك الفترة استطيع هنا ان اقول ـ وبضرس قاطع ـ ان السلاح الوحيد الذي كان يمكن ان يزيل الخطر عن الدين ويسقط دينية السلطة ويحطم مدرستها الثقافية هو فقط وفقط شخص الإمام الحسين بدمه ورأسه، وصدره ونحره؛ وباختصار ووضوح إن السلطة التي تقتل حسيناً هي لاسلطة لا تنتمي إلى الدين بصلة، لقد قطع الإمام الحسين عليه السلام بشهادته شعرة معاوية التي كانت تربط بين الدين وبين سلطة الأمويين لقد سقطت قدسية الخليفة ودينية الخلافة؛ ولو لم يفعل الحسين ما فعل ما كان يستطيع احد غيره ـ لخصوصية الحسين عليه السلام ـ ان يؤسس لنهاية المشروع الأموي وخصوصاً في جانبه المعرفي والثقافي والذي تولاه من بعده الأئمة من ذريته عليهم السلام.

لقد وعى ائمة اهل البيت عليهم السلام حجم المخاطر التي يحملها المشروع الأموي انها مخاطر يمكن ان تهدد الدين من اساس، ولكن هذه المرة يعمل على اسقاط الدين باسم الدين، صحيح ان معركة التنزيل قد ختمت وكانت نهايتها لصالح الاسلام لكن معركة التاويل قد فتحت بل معركة الوضع والتحريف التي حمل لواءها المشروع الاموي.

ان خروج الإمام الحسين عليه السلام لايمكن فصله عن هذه المعركة وتلك المواجهة، وحتى لو كان الإمام الحسين يعلم بشهادته ـ وهو كذلك ـ فلربما نتائج لا تتحقق إلا من خلال فعل الشهادة، لان الكلمة

آنذاك ـ إلى حد ما ـ قد استهلكت والموعظة قد استنفذت ولم يعد يحرك ذلك السكون العميق والسبات الهائل ولم يعد يحطم تلك الواجهة الدينية وذلك الزيف باسم بالدين الاحدث كبير ووقع مدوى يستنهض الأمة من سباتها ويجدد فيها عزيمتها ويعري تلك السلطة من ورقة توت كانت تتستر بها.

إن الدين ليس عقلاً فقط انه عقل وعاطفة كلمة وشعور فكرة واحاسيس إن العقل قد يؤدي إلى العاطفة والعاطفة ربما تحرك العقل؛ إن الدين يريد ان يستخدم فطرة الإنسان بكل إمكانياتها في سبيل دفعه نحو الهداية والصراط المستقيم وتلك الفطرة تمتلك الشعور كما تمتلك الوعي، وكما يُعمل على الإستفادة من وعي الإنسان وعقله يُعمل ايضاً على الإستفادة من عاطفته وشعوره. ولربما تكون الحاجة في ظرف ما إلى المشاعر اكثر ولربما في ظرف آخر إلى العقل أكثر وإن كانت الحاجة اليهما معاً لا تُعدم.

إن غزل الدم والوعي لايغفل وقصة الشهادة والثقافة لاتهمل، بينهما نسيج يعيه من قرأ قصيدة الحسين عليه السلام وعرف خاتمتها؛ لولا شهادة الحسين عليه السلام لما كان هناك دين باسم الإسلام او قد يكون اسلام لكن اسلام السلاطين اسلام التخدير والتبرير لا اسلام التنوير والتغيير.

مدخل

ليس من السهل الإحاطة دفعة واحدة بكل الظروف والأهداف التي ترتبط بثورة الإمام الحسين عليه السلام إذ أن الأهداف التي عنت بها تلك الثورة هي عديدة ترتبط بأهداف الدين عامة ومهمات الإمامة المعصومة على المستوى الاجتماعي والسياسي وعلى المستوى المعرفي والتربوي. وهنا قد نجد ان كثيراً من الأبحاث والدراسات قد اهتمت بتلك الثورة على مستوى اهدافها السياسية والاجتماعية لكن قليلة تلك الأبحاث التي تناولت تلك الثورة من جهة كونها مشروعاً للإصلاح الديني، بمعنى ان صراعاً معرفياً كان دائراً بين المدرسة الفكرية لبني أمية وبين المدرسة الفكرية لأهل البيت عليهم السلام، صحيح ان تلك الثورة لم تكن في الظاهر حركة معرفية إنما كانت حركة ثورية تغييرية بمعناها الاجتماعي السياسي ،لكنها ليست مفصولة في دوافعها واهدافها عن تلك البيئة المعرفية الدينية التي نشأ قادتها في احضانها وتربوا فيها، إن نظرة تاريخية فاحصة إلى مشروع السلطة ـ السلطة الأموية ـ آنذاك تبيّن حجم تلك الأخطار الكبيرة التي كانت تهدد الفكر الديني الإسلامي بمجالاته كافة الكلامية والسياسية والأخلاقية. . . مما يعني ان عملية تشويه كبيرة للدين الإسلامي كان يجري العمل عليها بشكل منظم ومبرمج مدعوماً بقوة السلطة وإمكانياتها من اجل انتاج مجموعة مفاهيم منسوبة إلى الدين يكون الهدف من ورائها اعطاء المشروعية الدينية للسلطة الأموية وخلق الأجواء المعرفية والكلامية

المناسبة لاستمرارها وديمومتها. إن مراجعة دقيقة للتاريخ المعرفي لتلك المرحلة التاريخية تكشف عن وجود صراع معرفي محموم بين مدرسة اهل البيت عليهم السلام وبين المدرسة الأموية كانت السلطة فيه احدى ادوات هذا الصراع، بل كانت بالنسبة إلى الأمويين المحور وتمثل الهدف الذي يراد الحفاظ عليه مهما كانت النتيجة حتى لو تطلب الأمر تقديم منظومة من المفاهيم الدينية تخالف الدين في جوهره وحقيقته.

إن الدين يصبح في هذه الحالة ـ بالنسبة إلى الأمويين ـ وسيلة معرفية يراد منها أن تخدم مصالح سياسية ضيقة ومحدودة وان يكون كأداة من اجل تكوين وعي معرفي شعبي يساهم في مقاومة الوعي المعرفي المعارض الذي كان يهدد بالخطر اركان الملكية الأموية وديمومتها.

ومن هنا لم يكن الصراع آنذاك صراعاً على السلطة بمعناه الكلاسيكي إن من التبسيط بمكان ان ننظر إلى تلك المواجهة باعتبار كونها صراعاً سلطوياً، إن طبيعة الحدث ـ الموضوع تتطلب منا ان نتجاوز المعالجة السطحية لنصل إلى قراءة عميقة ومتأنية لذلك الحدث التاريخي المتميز في التاريخ الإسلامي. إن ما حدث في كربلاء لم يكن طفرة تاريخية أو عثرة من عثرات التاريخ بل كان حلقة في مسيرة مواجهة بدأت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وامتدت إلى علي عليه السلام ثم الحسن حتى وصلت إلى الحسين عليه السلام.

إن المشروع الديني قد كان حاضراً في ساحة المواجهة آنذاك وقد ارادت الإمامة المعصومة أن تقوم بوظائفها وأن تتصدى لمهماتها وكان الدين عنصراً من عناصر المواجهة وسلاحاً فعالاً في حسابات النصر والهزيمة، لكن بقاء الدين على ما كان عليه وكما جاء به محمد بن

عبد الله عليه السلام لم يكن ليسمح للسلطة الأموية ان تستفيد منه كثير الإفادة بل كان يمثل عقبة كبيرة امامها فكان لا بد من تشويه للدين ومن صياغة منظومة مفهومية دينية تستطيع ضمان ذلك الهدف، فضلاً عن انه كان قد استقر في الوعي الإسلامي العام ذلك الإقتران بين ما هو ديني وبين ما هو سياسي اي بين الولاية الدينية والولاية السياسية، وهنا تكمن الخطورة إذ أن ما كانت تقوم به السلطة الأموية انما كان باسم الدين وباعتبار كونها امتداداً للخلافة الإسلامية وبالتالي لم يكن ذلك التبرير الديني للسياسة الأموية ليقتصر ضرره على تلك المرحلة المعاشة آنذاك بل كان ليمتد إلى كل المراحل التاريخية اللاحقة عليه باعتبار انه سيتحول إلى مرجعية معرفية مشوهة هذه المرجعية المشوهة لن تنتج إلا فكراً مشوهاً؛ إن مرجعية صاغتها اقلام السلطة من اجل مصالح سلطوية ضيقة لن تقف تداعياتها الخطيرة عند حدود العمر الزمني لتلك السلطة ومشروعها الآني، بل سوف تتحول إلى مادة معرفية سامة تهدد بالموت كل تلك الأجيال اللاحقة وكل اولئك التقليديين في فكرهم ومعتقداتهم الذين أكلوا الطعم السام ويريدون لغيره ان يطعمه باسم الدين وشريعة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم .

إن تحريفاً خطيراً بهذا الحجم سوف يدفع ثمنه الكثير من الناس وخصوصاً على مستوى تسجيل تجربة منحرفة باسم الدين وتقديم صورة مغلوطة عن الدين على كافة المستويات السياسية والاجتماعية وهو ما سوف يؤدي إلى ابعاد الناس عن الدين وحرمانهم منه ، لأجل هذا ولأجل كل ما ذكرنا كان من الضروري حدوث عملية اصلاح ديني تسلب السلطة الأموية ورقة التوت الدينية وتنزع منها تلك المشروعية التي تنتمي إلى الدين وتوجه ضربة قاضية إلى تلك المرجعية المعرفية التي كانت في طور التأسيس وتعطل مفعول كل تلك الصناعة المعرفية التي كانت تروج لها الأبواق الإعلامية للحزب الأموي واقلام السلطة المأجورة؛ ان الهدف هو

اسقاط المدرسة الفكرية للسلطة.

قد يقال انه من الواضح إلى حد ما ان المشروع الأموي كان مشروعاً سلطوياً دنيوياً ولا داعي لذاك التهويل من التداعيات المعرفية للمدرسة الفكرية الأموية او انه اساساً هل توجد هكذا مدرسة؟

هنا استطيع القول ان القرب الزمني للتجربة الأموية من مرحلة صدر الإسلام ـ حتى ان معاوية مؤسس هذه التجربة في التاريخ الإسلامي كان مبرزاً على انه من صحابة رسول الله ﷺ ـ واقتران السياسي بالديني بما يعني ضرورة العبث بالديني المعرفي من اجل حفظ المصالح السياسية وتبرير افعال السلطة وتلك الإمكانيات التي امتلكتها السلطة وقتذاك لتسخيرها من أجل اهدافها... كل ذلك ينذر بالخطر سلامة الدين والتجربة الدينية.

إن نظرة فاحصة في المحصول المعرفي الأموي وفي السلوك الديني الأموي يؤكد تلك الحقيقة التي اشرنا إليها سابقاً ان مدرسة فكرية قد قطعت شوطاً من عمرها، وكان يراد لها ان تستمر من أجل بناء ثقافة تخدم مشروع السلطة ومصالحها.

وجدير بالإشارة أن البحث في الثورة الحسينية من ناحية بعدها الإصلاحي الديني يغني الفكر الحسيني ويساهم في كشف بعد من ابعاد الثورة لا يقل اهمية عما عداه.

الإصلاح في اللغة:

الإصلاح هو الإتيان بما هو صالح ونافع ومفيد والإصلاح في كل شيء إنما هو الإتيان بالمفيد بحسب ذلك الشيء، ذكر في المعجم الوسيط: «اصلح في عمله او أمره: اتى بما هو صالح نافع و(اصلح) الشيء: ازال فساده و(اصلح) بينهما او ذات بينهما أو ما بينهما أزال ما بينهما من عداوة وشقاق. وفي التنزيل العزيز: **﴿وإن طائفتنان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾** و**﴿اتقوا الله واصلحوا ذات بينكم﴾**، و(اصلح) اللّه لفلان في ذريته أو ماله: جعلها صالحة، وفي التنزيل العزيز: **﴿واصلح لي في ديني﴾**[1].

مفهوم الإصلاح الديني:

إن مفهوم الإصلاح الديني لا يعني بالضرورة انتاج مذهب جديد او ابداع منظومة من المفاهيم الدينية، بل إن مفهوم الإصلاح يتسع ليشمل حتى القضاء على مدرسة فكرية قد ارتدت اللباس الديني وهي لا تمت إلى الدين بصلة.

عندما نتحدث عن عملية إصلاح ديني فمعنى ذلك تحقق عناصر تلك العملية في الدائرة الدينية، وهذه العناصر هي:

اولاً: المقاييس الإصلاحية: وهذه المقاييس تتمثل هنا في الدين نفسه

---

(١) ص: ٥٢٠.

بصورته النقية وبمصادره الأساسية والتي هي القرآن الكريم والسنة المعصومة حيث يصبح النص الديني مرجعاً يرجع إليه من اجل اصلاح كل تلك المفاهيم التي نسبت إلى الدين وهي غريبة عنه ودخيلة عليه.

ثانياً: القيادة الإصلاحية: إذ لا بد من وجود قيادة حكيمة تعي تلك المقاييس بشكل دقيق وتدرك ضوابط العملية الإصلاحية وتعرف اهداف العمل الإصلاحي وهي مستعدة ان تدفع ثمن الإصلاح مهما غلت تضحياته قناعة منها بضرورته رغم ما ينطوي عليه مشروع الإصلاح الديني من مخاطر وخصوصاً إذا امتزج الديني بالسياسي وليس السياسي قناع الديني فإن العملية تصبح اخطر واعقد.

ثالثاً: مبررات العمل الإصلاحي: ونعني بذلك حصول انحراف ما في الدائرة الدينية الذي له اشكال متعددة من قبيل ان تنحرف مسيرة دينية بأكملها فتحتاج إلى عمل يعيدها إلى طريقها الصحيح او ان ينشأ مذهب فكري او مدرسة فكرية في الإطار الديني اي تأخذ من الدين تبريراً معرفيا لها لتضفي على مفاهيمها ومعتقداتها لباساً دينياً مع كونها تخالف النص الديني والمنهجية المعتمدة من قبل المعرفة الدينية في صناعتها لمفاهيمها ومفرداتها؛ وهو ما يتطلب عملية اصلاح تظهر غربة تلك المدرسة بمفاهيمها ومفرداتها عن الدين وكونها جسماً معرفياً اجنبيا عنه بل يشكل خطراً عليه وعلى سلامة معتقداته ومفاهيمه.

وينبغي التأكيد على أنه في قراءتنا لأسس الإصلاح الديني يجب أن

نلتفت إلى قضية جداً مهمة وهي انه عندما نريد ان نقرأ تجربة معينة من تجارب الإصلاح الديني يجب ألا نأسر فكرنا بين جدران تلك التجربة بمعنى الا نمتلك القدرة على استخلاص مفاهيمها، بل يجب ان نكون دقيقين جداً من ناحية التفريق بين العوامل والسنن التي حكمت الواقع التاريخي وبين الصناعة المفهومية التي لها ضوابطها وتقنينها الخاص بها. إنِ تجربة الإصلاح الديني البروتستانتي هي تجربة غنية تستحق ان تقرأ بدقة وان يكتشف من خلالها جدل الديني مع الديني، لكن شرط ان نمتلك القدرة على التعميم الصحيح من خلال قراءة منهجية صحيحة للتاريخ، وإلا فإن قراءة خاطئة للتاريخ من خلال قراءة التجارب البشرية التي حملها لنا سوف تؤدي إلى تعميم خاطىء من التاريخ ولا شك ان التعميم الخاطىء سوف يؤدي بدوره إلى تطبيق خاطىء في الواقع الاجتماعي المعاش.

إن ما نريد قوله هو اننا لا نستخدم هذا المصطلح باعتبار كونه حاكياً عن خصوصية تجربة تاريخية معينة، لأنه لا شك ان المصطلح الذي يكون وليد تجربة تاريخية ما فإنه سيحمل إيحاءات تلك التجربة التي سوف تترك بصماتها عليه مما قد يؤدي إلى إيجاد اكثر من لبس في الفهم، إلا اذا عمل الباحث على تلافيه بشكل او آخرْ.

إننا نستخدم هذا المصطلح بما هو نتاج للمعرفة الدينية الإسلامية وبما هو حاكٍ عن ذلك المعنى الأصيل في البيئة المعرفية الإسلامية، لأنه «من باب التضليل المؤذي إلى ابعد الحدود ان يحاول الناس تطبيق المصطلحات التي لا صلة لها بالإسلام على الأفكار والأنظمة الإسلامية، حيث ان للفكرة الإسلامية نظاماً اجتماعياً متميزاً خاصاً بها وحدها يختلف

من عدة وجوه عن الأنظمة السائدة في الغرب»[1] كما يقول الباحث النمساوي محمد أسد.

هنا من المناسب ان نعود إلى عملية الإصلاح كما يبينها لنا القرآن الكريم.

الإصلاح في القرآن الكريم:

لقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن الإصلاح وقد وردت مادة هذه الكلمة عشرات المرات في الكتاب العزيز وفي موارد عديدة نذكر منها على سبيل المثال:

١ ـ **ثمار الإصلاح**: يذكر القرآن الكريم ثماراً عديدة للإصلاح سواءً على المستوى الفردي او غير الفردي، هذه الثمار التي يمن بها علام الغيوب على عبده المصلح.

أ) المصلح لا يحزن ولا يُخاف عليه، يقول تعالى: **﴿فمن آمن واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**[2].

ب) اجر المصلح على اللّه تعالى: **﴿فمن عفا واصلح فأجره على اللّه﴾**[3].

ج) الإصلاح يمنع العذاب: **﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم**

---

(١) مجلة التوحيد، عدد ٩٧، ص ١٣٠.

(٢) الانعام: ٤٨.

(٣) الشورى: ٤٠.

واهلها مصلحون﴾[1].

٢ ـ **الإصلاح هدف الأنبياء**: ينص القرآن الكريم على ان الإصلاح هو هدف اساسي من اهداف الأنبياءعليهم السلام، ولذلك كانت دعوتهمعليهم السلام تشدد على عملية الإصلاح وعلى النهي عن الإفساد والسعي للقضاء عليه بكافة اشكاله وصوره، وإن أكثر معاناة الأنبياءعليهم السلام والأوصياء والأئمةعليهم السلام انما كانت بسبب مشاريعهم الإصلاحية وعملهم الإصلاحي الذي لم يكن ليروق للذين يستفيدون من الفساد الحاصل بل إن مصالحهم تكمن في شيوع الفساد وانتشاره، فإذا نجح العمل الإصلاحي فإن تلك المصالح تصبح في معرض الزوال ولذلك يقاومون الإصلاح ويعملون على محاربته بشتى الأساليب وبكل الطاقات من محاصرة العمل الإصلاحي إلى الترغيب والترهيب إلى الإعتقال والسجن والتعذيب والنفي بل حتى لو تطلب الأمر التصفية الجسدية.

إن الطواغيت وسلاطين الدنيا لم تكن لتجفل وتستشعر الخطر من مفاهيم دينية لا تعارض الإفساد ولا تدعو إلى مقاومته، بل كانت تأنس بمن يقدم لها التبرير الديني لإفسادها ومواجهتها للإصلاح وتغدق عليه العطايا والهبات وهي لا شك تسعى لشراء الضمائر والمواقف، ومن هنا

---

(١) هود: ١١٧.

فإنها تعتني بأمر الدين وتجهد للإستفادة منه حتى لو تطلب الأمر العمل لتحريفه أو لإبعاد الناس عنه بشتى الوسائل، ولذا فقد كان الإصلاح الديني هدفاً اساسياً للأنبياء يقول القرآن الكريم في هذا المجال:

أ) في النهي عن الإفساد: ﴿**لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**﴾[1].

وقد ذكرت وجوه عديدة في تفسير هذه الآية منها ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام من أن الأرض كانت فاسدة فأصلحها الله بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ولا شك ان عملية الإصلاح الديني قد كانت من اهم الأهداف التي سعى إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ب) الإصلاح الشعيبي: ﴿**إن اريد إلا الإصلاح ما استطعت**﴾[2].

يتحدث القرآن الكريم عن ذلك الفساد الذي كان منتشراً بين قوم شعيب حيث نهاهم نبيهم عن ذاك الفساد ﴿**ولا تعثوا في الأرض مفسدين**﴾[3] وحذرهم من عواقبه ونتائجه وبين لهم الهدف من دعوته بأنه لا يريد إلا الإصلاح وان رسالته هي رسالة إصلاحية.

ج) الإصلاح يعود بالخير: ﴿**لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**

---

(١) الأعراف: ٥٦.

(٢) هود: ٨٨.

(٣) هود: ٨٥.

ذلكم خير لكم﴾[1].

بعد ان ينهى اللّه تعالى عن الإفساد في الأرض ـ بعد ان اصلحت ـ فإنه يبين ان هذا الإصلاح يعود بالخير على الإنسان ولا شك ان هذا الخير ليس في مجال واحد بل هو في مجالات متعددة وميادين مختلفة اجتماعية واقتصادية..

٣ ـ **الإصلاح الإنساني**: كما ان القرآن الكريم يتحدث عن الإصلاح بشكل عام فإنه يتحدث في بعض آياته عن الإصلاح في دوائر محددة فهو في الوقت الذي يحث على الإصلاح عامة من جهة تبيين ثماره اخروياً ودنيوياً فإنه يحدد القول ويفصله على مستوى الإصلاح في الدائرة البشرية في مجالات عديدة فردية واجتماعية.

أ) في المجال العائلي: يقول تعالى بالنسبة إلى الزوجين:

﴿فلا جناح عليهما ان يصلحا بينهما صلحا والصلح خير﴾[2].

ب) إصلاح ذات البين: يؤكد القرآن الكريم كثيراً على إصلاح ذات البين ويربط بينه وبين تقوى اللّه تعالى من جهة ان التقوى لا بد ان تثمر إصلاحاً، يقول تعالى: **﴿فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم﴾**[3].

---

(١) الأعراف: ٨٥.

(٢) النساء: ١٢٨.

(٣) الأنفال: ١.

ت) الإصلاح بين المؤمنين: يقول تعالى في هذا المجال: **﴿إنما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم﴾**[1].

ج) الإصلاح بين الجماعات الدينية: يقول عز وجل في هذا المورد: **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾**[2].

والنتيجة التي يمكن ان نستفيدها من هذا البيان الموجز لقضية الإصلاح في القرآن الكريم هي ان الكتاب العزيز قد اولى اهتماماً خاصاً بقضية الإصلاح وجعلها قضية دينية بل هي تكمن في جوهره، وذكر موارد عديدة للإصلاح الذي جعله هدفاً مهماً للأنبياء وبين لنا بعض التجارب الإصلاحية التي قادتها النبوة في التاريخ القديم، واعطى للإصلاح بعداً تقوائياً ولا شك ان التقوى هي عنوان الدين، واشرنا إلى ان المصلح الأكبر هو رسول الله ﷺ.

الإصلاحي الأعظم:

إن أعظم أصلاحي على مر التاريخ هو رسول الله ﷺ الذي قاد اعظم مشروع للإصلاح عرفته البشرية والذي عمل على كافة جبهات الإصلاح من الإصلاح الديني إلى الإصلاح السياسي والإجتماعي والتربوي، إن عملية الإصلاح التي قادها رسول الله ﷺ ترتبط بالرؤية الكونية الإلهية للوجود والحياة وبفلسفة الدين للوجود الإنساني باعتبار

---

(١) الحجرات: ١٠

(٢) الحجرات: ٩.

كونه وجوداً مختاراً وهادفاً إلى معرفة اللّه تعالى وإلى الحصول على الكمال والخير والسعادة وحاملاً للأمانة الإلهية وخليفة اللّه على الأرض؛ ولذلك فقد كان الإصلاح الديني هدفاً اساسياً عمل عليه رسول الله ﷺ من خلال مواجهته للشرك ولجميع المعتقدات الدينية الجاهلية التي كانت تكبل ذاك المجتمع وتمنعه من المضي قدماً في سبيل سعادته. إن ذلك الفساد في الاعتقاد الديني الذي كان سائداً في تلك المرحلة الجاهلية كان هدفاً اساسياً لهجوم الإصلاح التوحيدي.

إن المجتمع الجاهلي لم يكن مجتمعاً خالٍ من الدين بل كان مجتمعاً دينياً بالمعنى العام للكلمة ﴿**لكم دينكم ولي دين**﴾[1] ولكن هذا الدين الذي كانوا يعتقدون به كان مليئاً بالإعتقادات الفاسدة والمعتقدات الباطلة والتي كانت تترك اثرها على مجمل القناعات والمفاهيم التي كانوا يحملونها، ولا يخفى الأثر الذي تتركه المنظومة الاعتقادية على المستوى الاجتماعي والسياسي والتربوي، إن الاعتقاد بكون التأثير في عالم الأسباب والمسببات للّه وحده بمعنى أن اللّه تعالى هو الذي أوجدها واعطاها القدرة على التأثير وهو قادر على سلب هذه القدرة وانه لا تخفى عليه خافية وانه بالمؤمنين رؤوف رحيم ؛إن هذا الاعتقاد يسهم في تكوين وعي تربوي سوف يظهر في كافة الأنماط السلوكية للفرد، بل ويسهم في تكوين قناعات عديدة على أكثر من مستوى سياسي واجتماعي. إن تجربة نبوية ربما لا تنجح في الوصول إلى نتيجة مثبتة على مستوى الإصلاحات السياسية او الإقتصادية ـ كما حصل مع نبي اللّه شعيب ـ لكن هذا لا يعني فشل عملية الإصلاح بالمطلق، لأنه حتى في حال تكذيب النبي ومواجهة التجربة النبوية الذي كان يؤدي عادة إلى انزال

---

(١) الكافرون: ٦.

العذاب الإلهي، فإن الإصلاح الديني قد يحقق أكثر من نجاح او يثبت لنفسه موطأ قدم راسخ.

إن عملية الإصلاح الديني التي قادها رسول الله ﷺ لم تقتصر على المرحلة المكية فقط بل تعم ايضاً المرحلة المدنية حيث ان رسوبات الدين الجاهلي والمعتقدات الجاهلية لم تكن قد زالت بالمرة وكان يمكن لها أن تهدد بالخطر رسالة رسول الله ﷺ في حال سمحت الظروف لتلك المعتقدات ان تظهر على مسرح الأحداث بشكل او آخر.

إن علياً عليه السلام عندما يصف رسول الله ﷺ فإنه يذكر من جملة ما يذكره ان اللّه تعالى: «**اظهر به (برسول الله) الشرائع المجهولة وقمع به البدع المدخولة وبين به الأحكام المفصولة**»[1].

يجب ان يكون واضحاً إلى الآن ان عملية الإصلاح الديني لا تعني فقط انتاج مذهب ديني جديد بناءً على رؤية فكرية دينية استطاعت أن تتجاوز المذهب القديم من خلال اكتشاف اخطائه وضعفه وبطلان جملة من معتقداته او انحرافه؛ بل إن مفهوم الإصلاح الديني يتسع ليشمل حتى ظهور دين اصلاحي ليواجه دينا آخر مليئاً بالمعتقدات الباطلة والخرافات والأساطير، كما حصل في المواجهة بين الدين الإسلامي والدين الجاهلي.

إن الإصلاح الديني الذي قام به رسول الله ﷺ والذي عمل على تطبيق مفرداته استطاع ان يحقق نجاحاً كبيراً، وقد أراد رسول الله ﷺ تكريس هذا الإصلاح وتفعيله أكثر بعد حياته المباركة صلوات الله عليه وآله فكان مشروع الإمامة المعصومة التي هي امتداد للنبوة على هذا

---

(١) نهج البلاغة، خ ١٦١.

المستوى الوظيفي وعلى مستوى تولي كافة وظائف النبوة ـ سوى ان الوحي قد انقطع بموت رسول الله ﷺ ـ فكانت الإمامة حصناً منيعاً للإصلاح الديني وللمحافظة على الدين ولمقاومة الفساد المعرفي والكلامي والفقهي الذي قد يقوى بين حينٍ وآخر مستفيداً من ظروف موضوعية وإمكانات سلطوية ليأخذ محلاً له في الصرح المعرفي الديني وهذا ما وضع مؤسسة الإمامة امام مسؤوليات خطيرة وجسيمة اذ ربما ينتكس الإصلاح السياسي او يتراجع الإصلاح الإجتماعي او يفشل الإصلاح الاقتصادي ويترك ذلك اضراراً بالغة ـ وتجب مقاومة الفساد على كافة هذه المستويات ـ لكن يبقى شيء آخر له حساباته الخاصة وهي انه إذا استحكم الفساد على المستوى المعرفي الديني فإن ضرراً بالغاً لن يقف مداه عند حدود الظرف التاريخي الذي نشأ فيه ذلك الفساد المعرفي الديني بل سيتقدم في الزمن ما اخضر له عود أو قوي له جانب.

فضلاً عن أمر مهم وهو انه قد يصعب في بعض الظروف القيام بعملية اصلاح على المستوى السياسي والإجتماعي والإقتصادي، لكن يبقى من الأسهل القيام بعملية بإصلاح ديني او متابعتها والحفاظ على مكتسباتها ولو في بعض الدوائر المحدودة التي لا تفتح اعين السلطة ولا تثيرها بشكل مباشر، صحيح ان هذا الإصلاح الديني ـ ولو كان في دوائر محدودة ـ لا ينفصل عن الواقع السياسي والإجتماعي على المستوى النظري لكن عملياً يمكن الفصل بينهما بل قد يصبح ذلك مطلوباً وضرورياً إذا كانت تلك الظروف السياسية والإجتماعية تقتضي ذلك، وعندها يكون من الصحيح ابقاء العمل الإصلاحي في إطار معرفي ديني ومتابعته بشكل محدود وهادىء حفاظاً على العملية الإصلاحية وديمومتها إذ ان الظروف والشروط المطلوبة لنقل هذه العملية إلى الميدان الإجتماعي قد لا تكون

قد نضجت بعد، مما يهدد مجمل المشروع الإصلاحي بالخطر.

واستطيع ان اقول بشكل موجز ان مؤسسة الإمامة قد تولت مهمة الإصلاح الديني واستطاعت ايضاً ان تحقق أكثر من انجاز على هذا المستوى رغم صعوبة الظروف التي عملت فيها ودقة المرحلة التي مرت فيها.

الإصلاح الديني في تجربة الإمام علي عليه السلام :

بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدأت تجربة دولة الخلافة بما تحمله تلك التجربة من إمكانية للخطأ على أكثر من مستوى معرفي - ديني وغيره من خلال تلك الرؤية التي كانت تحملها انه للقيادة السياسية صلاحياتها على المستوى الديني، وهذه الرؤية كان قد مارسها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خلال قيادته للأمة على كافة المستويات الدينية بما يعنيه مفهوم الديني من شمول وسعة لكل مجالات الحياة على المستوى الإعتقادي والاجتماعي والعملي بما يخدم هدايتها دنيوياً واخروياً.

وقد رأينا في تجربة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان تصديه لم يكن مقتصراً على جانب دون آخر فلم يكن يتصدى للديني المعرفي ويهمل الديني العملي او يتصدى للديني العملي ويهمل الديني المعرفي بل كان تصديه لكليهما، فهذه الرؤية التي كانت قد استحكمت حتى ذلك الحين قد عملت الخلافة على تطبيقها والاستفادة منها في ادارتها السياسية للدولة والمجتمع.

إن هذا الإقتران بين السياسي والديني المعرفي قد ادى في بعض الأحيان إلى تبني السلطة لبعض المواقف الدينية التي لم تكن مورد قبول من الإمام علي عليه السلام بحسب رؤيته التي ورثها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك

الإرث العلمي الذي حمله اياه الرسولﷺ قبل وفاته والذي كان محل اعتراف من الكثيرين.

وجدير بالإشارة إن الحديث عن الإصلاح الديني في تجربة الإمام عليعليه السلام يحتاج منهجياً للحديث عن مكانته العلمية لسبب بسيط جداً وهو انه إذا ثبت لدينا ان رسول اللهﷺ قد جعل من عليعليه السلام المرجعية المعرفية الدينية للمسلمين ليكون الناطق باسم النص الديني ويكون قوله الفصل على المستوى المعرفي؛ عندها سيكون عليعليه السلام هو المقياس للإصلاح الديني، فما قبلهعليه السلام سيكون صحيحا دينياً وما رفضه سيكون باطلاً على المستوى الديني.

يعقد الشيخ المفيد في كتابه الإرشاد فصلاً تحت عنوان «ومن ذلك ما جاء في فضلهعليه السلام على الكافة في العلم» وينقل بعض الروايات فيقول: «.. عن ابن عباس قال: قال رسول اللهﷺ **علي ابن أبي طالب أعلمُ امتي واقضاهم فيما اختلفوا فيه من بعدي..**

عن حمزة بن أبي سعيد الخدري عن ابيه قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: **انا مدينة العلم وعلي بابها فمن اراد العلم فليقتبسه من علي.**

عن عبد الله بن مسعود قال: استدعى رسول اللهﷺ علياً فخلا به، فلما خرج إلينا سألناه ما الذي عهد إليك؟ فقال: **علمني رسول الله ألف باب من العلم، فتح لي كلّ باب الفَ باب.**

عن الأصبغ بن نباتة قال: لما بويع امير المؤمنين علي ابن أبي طالب بالخلافة خرج إلى المسجد معتماً بعمامة رسول اللهﷺ لابساً برديه، فصعد المنبر فحمد الله واثنى عليه ووعظ وأنذر، ثم جلس متمكناً

وشبّك بين اصابعه ووضعها اسفل سرته ثم قال:

يا معشر الناس سلوني قبل ان تفقدوني، سلوني فإني عندي علم الأولين والآخرين اما ـ والله ـ لو ثني لي الوساد لحكمت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين اهل الإنجيل بإنجيلهم واهل الزبور بزبورهم واهل القرآن بقرآنهم، حتى يزهر كل كتاب من هذه الكتب ويقول: يا ربّ إن علياً قضى بقضائك والله اني أعلم بالقرآن وتأويله من كلّ مدّع كلمة، ولولا آية في كتاب اللّه لأخبرتكم بما يكون إلى يوم القيامة ـ ثم قال ـ سلوني قبل ان تفقدوني فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو سألتموني عن آية لأخبرتكم بوقت نزولها وفي من نزلت وانبأتكم بناسخها من منسوخها، وخاصها من عامها ومحكمها من متشابهها مكيها من مدنيها، والله ما فئة إلا وانا اعرف قائدها وسائقها وناعقها إلى يوم القيامة»[1] ويختم الشيخ المفيد بقوله: في أمثال هذه الأخبار مما يطول به الكتاب.

وهنا يمكن القول ان هذا التميز العلمي للإمام علي عليه السلام قد كان من اجل حراسة الدين وحمايته من تلك العوامل التي يمكن أن تؤدي إلى تبديل بعض أحكامه ومفاهيمه. ولذلك عمل عليه السلام من اجل الحفاظ على الدين نقياً من أي انحراف وفي هذا يخاطبه الإمام علي بن محمد النقي عليه السلام في تلك الزيارة التي زار بها الأمير عليه السلام يوم الغدير فيقول:

«.. مولاي بك ظهر الحق وقد نبذه الخلق وأوضحت السنن بعد الدروس والطمس..»[2].

---

(١) ج١، صص ٣٣ ـ ٣٥.

(٢) عباس القمي، مفاتيح الجنان، ص ٤٦٣.

وبالعودة إلى تلك الإشكالية فإننا نجد ان السيد مرتضى العسكري قد اشار إليها وإلى تداعياتها على مستوى المعرفية الدينية فبعد ان يذكر نماذج من اجتهادات الصحابة يقول: «رأينا فيما سبق اجتهادات للصحابة والتابعين والخلفاء منهم خاصة في احكام اسلامية عملوا فيها برأيهم واجتهادهم في مقابل نصوص من كتاب الله وسنة رسوله لما اعتقدوا فيها مصلحة لسياسة الحكم او غير ذلك..»[1].

ويذكر السيد العسكري موارد الاجتهاد في قبال النص[2] وكذلك فعل الإمام شرف الدين في كتاب «الإجتهاد في مقابل النص» حيث يعدد موارد اجتهاد الخلفاء وغيرهم ومن تلك الموارد ما يرتبط بنحلة الزهراء فدكاً[3] وهذا ما ذكره امير المؤمنين عليه السلام في كتابه الذي ارسله إلى عامله على البصرة عثمان بن حنيف حيث يقول: «.. **بلى كانت في ايدينا فدك من كل ما اظلته السماء فشحّت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين ونعم الحكم الله..**».

ومن تلك الموارد ما يرتبط بقضية التوريث حيث حرمت الزهراء عليها السلام من ارث ابيها رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قالت: فيما قالته صلوات اللّه وسلامه عليها محتجة على غصبها حقها:

«.. أعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم، اذ يقول: ﴿**وورث سليمان داوود**﴾، وقال فيما اقتص من خبر زكريا: ﴿**فهب**

---

(١) معالم المدرستين، ط ٥، مج ٢، ص ٣٨١.
(٢) م ن، صص ٧٤ ـ ٢٩٩.
(٣) صص ١٢٣ ـ ١٣١.

لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً﴾ وقال **﴿واولو الأرحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله﴾** وقال: **﴿يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين﴾** وقال **﴿كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾** ثم قالت: «اخصكم الله بآية اخرج بها أبي؟ ام انتم اعلم بخصوص القرآن وعمومه من ابي وابن عمي؟ ام تقولون اهل ملتين لا يتوارثان؟..»[1].

وهنا قد يطرح هذا السؤال أنه ما هو التفسير النظري لمخالفة سلطة الخلافة للنص؟ وما هو الدافع الذي دفع الخلفاء للإجتهاد في مقابل النص (نص الله ورسوله)؟

هنا نستطيع القول ان تصدي الخلفاء للسلطة السياسية والاجتماعية قد فرض على سلطة الخلافة مسؤوليات عديدة على مستوى الممارسة الشرعية والمهمات المعرفية الدينية والتي كانت مناطة بالسلطة العليا للدولة الإسلامية ،وهنا كان امام سلطة الخلافة احد خيارين: اما ان تلجأ في كل شاردة وواردة تخفى عليها إلى مدرسة الإمامة متمثلة برمزها آنذاك امير المؤمنين علي عليه السلام مع ما يعني ذلك من الإعتراف بمرجعيته على المستوى الديني المعرفي ،وما يمكن ان يكون لذلك من دلالات ونتائج على المستوى السياسي كانت السلطة تحذر منها اشد ما يكون من حذر،او ان تتصدى للمعرفية الدينية محاولة الاستغناء عن مدرسة الإمامة وما يمكن ان يستتبعه ذلك من اخطاء على مستوى الممارسة الدينية وتقديم

---

(١) صص ١١٥ ـ ١٢٢.

النموذج الإسلامي.

مع ان علياً عليه السلام عندما لمس ذلك الإصرار على التمسك بالحكم مهما كانت النتائج ولم يكن بالإمكان تغيير الوضع السائد بالعمل المسلح «**فطفقت ارتأي بين ان اصول بيدٍ جذاء او اصبر على طخية عمياء.. فرأيت ان الصبر على هاتا احجى**»[1]؛ فقد اختار نهجاً سياسياً يقوم على اساس المسالمة شرط ان تسلم امور المسلمين وان يُحافظ على سلامة التجربة الإسلامية وهذا ما خفف من مخاوف السلطة إلى حدٍ ما، وقد عبر عن موقفه هذا من خلال خطابه السياسي الذي قال فيه: «**لأسالمن ما سلمت امور المسلمين، ولم يكن فيها جور الا عليَّ خاصة**»، اي انه كان مستعداً ان يضحي بحقوقه الشخصية شريطة ان تبقى السلطة تحتذي حذو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وان تستقي التجربة الإسلامية احكامها من سنة الله ورسوله؛ لكن بما ان سلطة الخلافة كانت تعطي اهمية كبيرة للمحاذير المشار اليها آنفاً وكانت تخشى من دلالات البروز المعرفي الديني لمدرسة الإمامة، فقد تجنبت ذاك الخيار وعملت على استبعاده إلى حد كبير؛ وخصوصاً فيما يرتبط بذلك الجانب من النص الديني الذي له ارتباطه الوثيق بالشأن السياسي، فقد كانت المصلحة السياسية تقتضي عدم الأخذ بذلك النص، وإلا فإن الأخذ به ربما يكون له عواقب غير محمودة في حسابات السلطة، فضلاً عن مسألة جديرة بالإلتفات وهي ان سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالتحديد كانت تختزن كماً كبيراً من الروايات التي تنص على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وخلافته السياسية مما وضع سلطات الخلافة امام مشكلة كبيرة، إذ ماذا تفعل بتلك الروايات التي تنزع المشروعية الدينية عنها؟

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية.

إن سلطة الخلافة قد واجهت ازمة حقيقية بسبب ذلك الإرث الروائي الذي تركه رسول اللهﷺ إذ انها اما ان تترك لذلك الإرث مداه وهو يعني انتشار تلك الأحاديث التي لا تخدم المصلحة السياسية للخلافة، او ان تعمل على اتخاذ اجراءات قاسية بحق ذلك الإرث الروائي مع ما يمكن ان يترك ذلك من تداعيات في المجتمع الإسلامي قد لا تكون لصالح السلطة او بالأحرى ليست لصالح التجربة الدينية، لكن كان لابد من موقف فارتأت السلطة الحفاظ على مشروعيتها السياسية فأقدمت على احراق احاديث رسول اللهﷺ ومنع كتابة العلم عنهﷺ[1] بل عملت على جمع أعلام الحديث حتى لا يذيعوا الحديث في الأمصار الإسلامية، ولا شك ان ذلك قد ادى إلى كثير من الأضرار بالمعرفة الدينية، يقول السيد شرف الدين (قده) في هذا الموضوع:

«لو كانت السنن مدونة من ذلك العصر في كتاب تقدسه الأمة لارتج على الكذابين باب الوضع، وحيث فاتها ذلك كثرت الكذابة على النبيﷺ ولعبت في الحديث ايدي السياسة، وعاثت به السنة الدعاية الكاذبة ولا سيما على عهد معاوية وفئته الباغية، حيث سادت فوضى الدجاجيل وراج سوق الأباطيل»[2].

وامام هذه الأوضاع كان لا بد للإمام عليعليه السلام من ان يعمل على حفظ تراث رسول اللهﷺ وحماية سنته من الضياع وان يبادر إلى مواجهة موارد الإجتهاد في قبال النص حتى لا تتحول مخالفة النص إلى نص ثانٍ، وبالتالي فإن علياً قد كان من رواد حركة الإصلاح الديني التي بدأها رسول اللهﷺ واناط مهمتها به وبالأئمة المعصومينعليهم السلام من أجل ان

---

(١) (٢) الإجتهاد في مقابل النص، صص ١٦٤ ـ ١٦٧.

يصل الدين نقياً خالصاً من اي انحراف او تشويه، وقد تولاها الأئمةعليهم السلام وعملوا جاهدين على ايصال تراث رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم إلى الأمة وذلك من خلال اعداد فئة من العلماء الذين يضعون على عاتقهم تلك المهمة الثقيلة وقد حرصوا على حماية الدين وحفظه حتى لو ادى الأمر إلى تقديم مهجهم وارواحهم وهذا ما حصل مع سيدي شباب اهل الجنة الحسن والحسين صلوات اللّه وسلامه عليهم اجمعين.

الاصلاح الديني في تجربة الإمام الحسن عليه السلام :

الإصلاح في تجربة الإمام الحسنعليه السلام: إن كثيرين قرأوا تجربة الإمام الحسنعليه السلام في مجالاتها كافة والتي منها جنبتها السياسية وخصوصاً قضية الصلح مع معاوية، وكانت هذه القراءات تفضي إلى نتائج متعددة، نعم قد يصح ان نقرأ حدث الصلح من زوايا متعددة وهذا سوف يؤدي تلقائيا إلى نتائج مختلفة، لكن هذه النتيجة تبقى نتيجة جزئية ولا يصح تقديمها كنتيجة كلية وشاملة؛ إن الخطأ الذي يقع فيه البعض انه يقرأ التاريخ بنظارة اقتصادية ـ مثلاً ـ فيصبح مقياس النجاح والفشل، النصر والهزيمة، الربح والخسارة هو الحصيلة الإقتصادية وربما يأتي آخر يلبس نظارة سياسية ـ بمعنى المصلحة الآنية للفعل السياسي ـ وبالتالي يصبح المقياس هو الحصيلة السياسية بذاك المعنى، وهكذا.

لكن عندما نأتي إلى تاريخ الإمام المعصومعليه السلام يجب هنا ان نقرأ التاريخ باعتبار كونه مسرحاً لأهداف الإمامة وفعلها وميداناً سعت فيه لحمل مسؤولياتها كاملة، وهذا يقتضي البحث في وظائف الإمامة وفلسفتها.

إن فلسفة وجود النبيصلى الله عليه وآله وسلم هي فلسفة وجود الإمام سوى ان الإمام ليس

بصاحب رسالة ولا ينزل عليه الوحي، إن الإمام هو الهادي للبشرية والمبين لأحكام الدين والحافظ له من اية عملية تشويه او تحريف فضلاً عن مهماته على المستوى السياسي والإجتماعي؛ وعليه إذا اردنا ان نقرأ المعصوم في التاريخ يجب ألا نغفل الإمامة في جانبها الديني ونقصر البحث على الإمامة في جانبها السياسي، بل تجب قراءة الحصيلة التاريخية على ضوء جميع اهداف الإمامة ووظائفها وبالتالي ربما لا تكون هناك حصيلة على مستوى العمل السياسي الظرفي والمحدود لكن قد تكون هناك نتائج مهمة على المستوى المعرفي الديني وبقية وظائف الإمامة، ما يعني ان حصيلة اساسية يجب ان ينظر اليها بكثير من الإهتمام والعناية. صحيح ان صلح الإمام الحسن عليه السلام قد ادى إلى خسارة السلطة لكن الإمام استطاع من خلال فعل الصلح إن يوجه ضربة قاسية لمصداقية النهج السياسي الأموي وان يظهر عدم اعتناء العمل السياسي الأموي بالدين وضربه للقيم الدينية بعرض الحائط.

إن اظهار ابتعاد الحزب الأموي عن الدين كان هدفاً اساسياً للأئمة، وإن ابراز لا دينية السلطة الأموية كان غاية مهمة لهم عليهم السلام لسبب بسيط وهو ان تلطي تلك السلطة بالدين لتبرير افعالها لن يكون عندها مجدياً ومحاولة تلك السلطة تكوين مدرسة ثقافية او وعي ثقافي باسم الدين سوف يكون محكوماً بالفشل، وبالتالي فإن كشف زيف المشروع الأموي واظهاره على حقيقته انه مشروع سلطوي دنيوي يأخذ من الدين ما يراه في مصلحته ويرفض منه ما يعارض تلك المصلحة؛ إن هذا الأمر هو انجاز اساسي ومهم؛ اعود لأقول لا لأن نتيجته سياسية فحسب، بل لأن له نتائج مهمة على المستوى المعرفي والديني فيما يرتبط بوصول الدين إلى الأجيال اللاحقة خالٍ من اي تشويه او تحريف بفعل عبث السلطة...

الإصلاح الديني في تجربة الثورة الحسينية:

لا شك ان كل ثورة لها مجموعة من الأهداف القريبة والبعيدة التي تسعى من خلال عملها الثوري إلى الوصول إليها وتحقيقها، وثورة الإمام الحسين عليه السلام ليست خارجة في واقعها وفي تخطيط قادتها عن قواعد العمل الثوري، وبالتالي سوف يطرح هذا السؤال انه ما هو الهدف أو الأهداف التي سعت من اجلها حركة الإمام الحسين عليه السلام والتي يمكن من خلالها الحكم ان هذه الثورة نجحت ام لا، وإذا نجحت كم هو مقدار النجاح الذي استطاعت ان تحرزه.. إذاً توجد مجموعة من الأسئلة لكن السؤال الأساسي إنما هو عن هدف او اهداف هذه الثورة؟

يمكن القول انه يوجد من يرى ان للثورة هدفاً واحداً سعت إليه وإن كان الإختلاف قد وقع في تحديد هذا الهدف الواحد هل هو الوصول إلى السلطة ام هو ايقاظ ارادة الأمة وتحريكها ام نزع المشروعية السياسية والدينية عنها ام هو فضح السلطة الحاكمة من خلال ما ارتكبته في يوم عاشوراء وما بعده...؟

وقد نصل إلى هذه النتيجة انه ليس من الصحيح الإقتصار على هدف واحد انما توجد مجموعة من الأهداف التي قصدتها استراتيجية الثورة والتي عملت على تحقيقها، وهي تشكل مجتمعة مشروعاً متكاملاً ارادت قيادة الثورة انجاحه.

وهنا نحتاج بداية إلى الحديث عن كلٍ من تلك الأهداف على حدة لنرى بعدها إن مشروع الثورة هل كان مرتبطاً بأحدها فقط ام كان اكثر من هدف منظوراً في ذاك المشروع.

١ ـ الهدف ايقاظ ارادة الأمة:

يرى من يعتقد ان الثورة الحسينية كانت تقصد هذا الهدف ان الإمام الحسين عليه السلام كان يعلم انه سوف يستشهد وان هذا العلم قد كان قبل خروجه، سوى انه كان يريد ان تكون شهادته حدثاً مدوياً يهز ضمير الأمة ويوقظ فيها ارادتها التي ضعفت حتى وصلت إلى مرحلة انها اعتادت على الظلم وألفت المنكر، فهي كانت تدرك انحراف بني امية وتعلم بمنكراتهم سوى انها فقدت إرادة التغيير او ضعفت هذه الإرادة إلى مستوى لم يعد يرتجى منها ان تبادر للقيام بعمل تغييري يقضي على انحراف السلطة الأموية ويعالج الفساد القائم.

وقد تبنى هذا الرأي السيد محمد باقر الصدر حيث نقل آية الله السيد كاظم الحائري رأيه في كتاب الإمامة وقيادة المجتمع حيث يقول:

«اما استاذنا السيد الشهيد(رض) فإنه كان يرى ان الأمة كانت مصابة بمرض الشك في زمن معاوية بن أبي سفيان، وقد عالجه الإمام الحسن بالصلح مع معاوية اما في زمن يزيد فإن الأمة برأت من ذلك المرض، وكانت تعرف الحق واهله، وتعرف الباطل واهله، ولكنها اصيبت بمرض آخر هو مرض فقدان الإرادة أو فقدان الضمير، وهذا المرض لم يكن له من علاج لكي تبرأ الأمة سوى ان يقدم الإمام الحسين عليه السلام على التضحية بنفسه وأهل بيته واصحاب لكي يهز بها الضمائر الميتة ويبعث الشجاعة والإرادة فيها، وهذا ما حدث فعلاً وحصلت تبعاً لذلك النتائج المتوقعة»[١].

---

(١) ص ١٧٩.

٢ ـ الهدف الوصول إلى الحكم:

يذهب البعض إلى ان هدف الإمام الحسين عليه السلام انما كان الوصول إلى الحكم وإقامة الحكومة الإسلامية فهو لم يكن يريد الإستشهاد، بل لم يكن يعلم انه سوف يستشهد وهو إنما ذهب إلى الكوفة لأن المعطيات الإجتماعية والسياسية كانت توحي ان ظروف الثورة قد وصلت فيها إلى مرحلة النضج وانه لم يعد إلا إعلان هذه الثورة وقيادتها إلى شاطىء النصر والذي حصل ان بعض المعطيات قد طرأت وان ظروفاً قد استجدت مما جعل الموازين العسكرية تنقلب لصالح السلطة الأموية وهذا ما ادى إلى عدم وصول الثورة إلى هدفها الذي سعت من أجله.

بل إن بعض انصار هذا الرأي يذهبون إلى ان شهادة الإمام الحسين عليه السلام كانت خسارة كبيرة للإسلام وان الإمام الحسين عليه السلام لو بقي حياً لاستفاد منه الإسلام أكثر بكثير من استفادته منه بعد شهادته.

وينقل السيد الحائري عن الكاتب نجف آبادي في كتابه «شهيد جاويد» قوله: «ما معنى اعتبار قتل الحسين عليه السلام انتصاراً للإسلام.. هل ان قتله سوف يسبب هداية الناس ام أن وجوده حياً بين الناس هو الذي يؤدي إلى هدايتهم.. وهل أن مقتل الإمام الحسين قد أدى إلى فضح يزيد بن معاوية وهو المفضوح بشرب الخمر والفجور والفسوق.. وهل ان مقتل الإمام الحسين قد ادى إلى قوة الشيعة وحركاتهم الثائرة كحركة التوابين وحركة المختار الثقفي وحركة سليمان بن صرد الخزاعي وهي جميعها قد أجهضت وقتل قادتها ولم تحقق جميعاً اهدافها..؟»[1].

---

(١) م ن، ص ١٧٨.

٣ ـ الهدف نزع المشروعية السياسية والدينية عن السلطة الأموية:

يرى البعض ان الهدف من ثورة الإمام الحسين عليه السلام لم يكن الوصول إلى الحكم لأنه كان يعلم بنتيجة تحركه وانه سوف يستشهد في نهاية المطاف وبالتالي فإن الوصول إلى الحكم لم يكن هدفاً واقعياً للتحرك الثوري؛ ولا شك أنه يجب الحكم على هذه الثورة على ضوء الهدف الذي وضعته نصب عينيها، فإن وصلت إليه تكون هذه الثورة قد حققت نجاحاً وإن لم تصل إليه تكون قد فشلت لأنها لم تحقق الأهداف او الهدف الذي ارادت.

وما يجب قوله إن هدف الثورة أمر آخر غير ما ذكر ألا وهو نزع المشروعية السياسية والدينية عن بني أمية، فالإمام الحسين عليه السلام كان معلوماً انه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد مدحه في موارد عديدة وانه قال بشأنه انه سيد شباب اهل الجنة وانه إمام قام او قعد.. فالأمة كانت تعلم المكانة الدينية والإجتماعية الكبيرة التي كانت للإمام الحسين وكانت تعلم عظمة منزلته عند الله وعند رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وعليه فإن اقدام السلطة الأموية على قتله وقتل اهل بيته واصحابه وخصوصاً بالطريقة التي فعلت سوف يفقد تلك السلطة آخر ورقة توت كانت تستر بها فسادها وانحرافها وسوف يحطم واجهتها الدينية.

إن اقدام السلطة على ارتكاب تلك الجريمة النكراء بحق عترة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سوف يؤدي إلى نزع المشروعية السياسية والدينية من السلطة الأموية، بمعنى ان تلك المشروعية السياسية التي كانت السلطة تنظّر لها وتسعى اليها من خلال اخذ البيعة من وجوه المجتمع الإسلامي آنذاك إن هذه المشروعية سوف تتحطم من خلال حدث الشهادة ولا يمكن ان تنجبر ابداً بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام، طبعاً ليس المقصود ان تلك السلطة

كانت تمتلك مشروعيتها السياسية قبل شهادة الإمام الحسين عليه السلام وانها فقدت تلك المشروعية بعد شهادته، بل المقصود ان حدث الشهادة قد كشف للأمة وبشكل واضح وسافر بطلان المشروعية السياسية لتلك السلطة وعدم جدوائية كل تلك المساعي التي ارادت من خلالها ان تعطي لنفسها مشروعية سياسية في الأمة.

فضلاً عن ان السلطة الأموية قد عملت على تكوين مدرسة فكرية لتعطي لعملها السياسي مشروعيته الدينية باعتبار ان المشروعية السياسية في تلك الفترة كانت تأتي من خلال المشروعية الدينية ،وقد قطعت اشواطاً في بنائها لتلك المدرسة من خلال وضع بعض الأحاديث في مدح معاوية وذم امير المؤمنين عليه السلام ولا شك انه من المعروف ان هذه القضية ليست قضية شخصية باعتبار ان ذم امير المؤمنين عليه السلام ولعنه على المنابر إنما كان تعبيراً عن مواجهة السلطة ومدرستها لمدرسته الفكرية، ويدل على سعي دؤوب من تلك السلطة لتحطيم الصورة المعنوية والمرجعية الدينية لأهل البيت عليهم السلام بما يعني ذلك ايضاً من عزلهم على مستوى الأمة وإيجاد الشرخ بينها وبينهم.

وقد عملت السلطة الأموية ايضاً على نشر بعض المذاهب الفكرية والترويج لها من قبيل مذهب الإرجاء والجبر اللذين يساعدان تلك السلطة على تكوين منظومة اعتقادية تبرر كل تلك الأعمال التي كان الحكام الأمويون يقومون بها حتى لو كانت مخالفة للإسلام والدين.

وعليه فإن شهادة الإمام الحسين عليه السلام سوف توجه ضربة قاضية لتلك المدرسة الفكرية ومفاهيمها بحيث يتحول المشروع الأموي إلى مجرد قوة تغلّب غير مقبولة شعبياً ودينياً واجتماعياً، وبالتالي فإن اي تغيير لاحقاً في الموازين العسكرية سوف يعني زوال المشروع الأموي بشكل كامل.

ترى هذه الرؤية ان الخطر الداهم من المشروع الأموي آنذاك هو ان يترك ذلك المشروع ارثاً فكرياً ودينياً يؤسس لحالة من الإنحراف في جسم الأمة على المستوى الفكري والمعرفي قد يبدأ في تلك الفترة لكن ليس من المعلوم متى ينتهي او إن كان سينتهي لاحقاً وكم سيترك من الويلات والمصائب.

إن الخطورة كانت تتمثل في ان تقّدم التجربة الأموية على اساس انها نموذج للتجربة الإسلامية على مستوى السياسة والاجتماع والاقتصاد... بحيث تصبح تلك التجربة أحد ابواب فهم الإسلام وتدرج على اساس انها صفحة من صفحات كتابه.

وإن ثورة الإمام الحسين عليه السلام كانت تهدف إلى تعرية السلطة الأموية وفضحها والقضاء على اية امكانية للقول بأنها كانت تمثل الإسلام او انها تقدم النموذج الإسلامي في الحكم مما سوف يسبب لاحقاً في اخذ الكثيرين لصورة مشوهة عن الإسلام تؤدي إلى ابتعادهم عن الدين واخذ موقف سلبي منه.

ان الكلام عن ان السلطة الأموية كانت مفضوحة من خلال سلوك ولاتها وقادتها وان انحرافها قد كان واضحاً لجميع الأمة وان مخالفتهم للإسلام والدين كانت بينة للقاصي والداني؛ ليس كلاماً صحيحاً ومقبولاً، لأن السلطة كانت تسعى لاستغلال الدين من اجل تبرير افعالها، ولذا عمدت إلى شراء بعض الشخصيات العلمية ممن يباع ويشترى وسخّرت وسائلها الإعلامية من اجل تحسين صورتها وتلميع مظهرها من خلال استخدامها لمنطق تبريري وتسويلي يُخفي حقيقة مايجري.. وبالتالي كان من الضروري القيام بعمل استثنائي ووقوع حدث كبير كشهادة الإمام

الحسين عليه السلام يؤدي بشكل مباشر إلى تحطيم تلك السلطة معنوياً ودينياً وشعبياً وتؤدي تداعياته إلى اضعافها تمهيداً لسقوطها ولو بعد حين من الزمن.

ان من البساطة بمكان ان نقول ان السلطة الأموية كانت مفضوحة على المستوى الديني والسياسي والاجتماعي؛ إن الوقائع التاريخية تثبت لنا أن المشروع الأموي كان يعمل بطريقة اصبح فيها وجود الدين مهدداً وانه قد قطع اشواطاً في تنفيذه لمخططه وفي سعيه لمآربه، وكان من الضروري لفعل شهادة ان يحصل ولدم كدم الحسين عليه السلام ان يسقط ولمأساة كمأساة كربلاء ان تقع بما يعني ذلك من التأسيس لعملية اصلاح وفعل ثورة لن يتوقفا إلا بالوصول إلى الأهداف المرجوة والتي منها القضاء على المشروع الأموي وكنس كل رسوباته.

إن ذلك الحدث التاريخي الذي حصل يثبت ـ من ناحية تاريخية ـ ان مؤسسة الإمامة كانت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تقوم بوظائف النبوة، واعني بها بالتحديد تبليغ الدين وتبيينه وحمايته من اي محاولة لاستغلاله او تحريفه.

لقد كان الاهتمام منصباً على حراسة الدين وهداية المجتمع، ولذا كان من الضروري امام ذلك الجمود الذي اصاب حياة الأمة وامام ذلك الوهن الذي نال من قدرتها على التغيير والإصلاح؛ ان تبادر مؤسسة الإمامة إلى القيام بفعل ما يكسر ذلك الجمود الذي اصبح يهدد وعي الأمة بفعل الفساد الأموي وادوات السلطة الإعلامية، ويبدل ذلك الوهن إلى قوة وعزيمة، فكان المشروع الإصلاحي للإمام الحسين عليه السلام الذي تمثل اصلاحاً دينياً وفكرياً وسياسياً مهد الأرضية لزوال السلطة وفسادها.

هل كان الإمام الحسين عليه السلام يعلم بشهادته؟

بعد ان استعرضنا بشكل مجمل الأهداف التي يمكن ان تكون منظورة للثورة الحسينية نعود لطرح هذا السؤال أنه ما هو الهدف او الأهداف التي سعى من أجلها الإمام الحسين عليه السلام والتي اقتضت تقديم كل تلك التضحيات في سبيلها؟.

اعتقد انه يوجد هنا سؤال اساسي يتكفل بتحديد طبيعة الجواب على السؤال الأول وهو هل كان الإمام الحسين عليه السلام يعلم قبل خروجه بشهادته ام لم يكن بذلك؟

إن الجواب يتطلب العودة إلى كلامه عليه السلام وبياناته ورسائله قبل خروجه أو بالتحديد اكثر قبل تغير الموازين العسكرية بشكل كبير لصالح السلطة الأموية لنرى انه هل كان يظهر من كلامه عليه السلام انه كان يعلم بنتيجة تحركه الثوري ام لا؟

إن من الواضح من خلال أكثر من كلام للإمام الحسين عليه السلام انه كان يعلم بما سوف يحصل له من شهادته في كربلاء:

١ ـ قال عليه السلام لعمر الأطراف ابن امير المؤمنين عليه السلام عندما قال له حدثني اخي الحسن انك تقتل: «**حدثني ابي ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخبره بقتله وقتلي، وان تربته تكون بالقرب من تربتي اتظن انك علمت مالم اعلمه؟ والله لا اعطي الدنية من نفسي ابداً..**»[1].

---

(١) صفحات في تاريخ كربلاء، ص ٢١٧ (عن مقتل الخوارزمي).

٢ ـ حين علمت ام سلمة (رضي الله عنها) انه سيخرج من المدينة قالت له: يا بني لا تحزنّي بخروجك إلى العراق فإني سمعت جدك رسول الله ﷺ يقول: يقتل ولدي الحسين في أرض العراق في مكان يقال له كربلاء؛ فأجابها عليه السلام:

«يا أماه.. وانا اعلم اني مقتول مذبوح ظلماً وعدواناً، وقد شاء عز وجل ان يرى حرمي ورهطي مشردين واطفالي مذبوحين مأسورين مقيدين وهم يستغيثون فلا يجدون ناصراً»[١].

٣ ـ كتب عليه السلام في كتابه الذي ارسله إلى بني هاشم:

«بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي إلى محمد بن علي ومن قبله من بني هاشم، اما بعد فإن من لحق بي منكم استشهد، ومن تخلف لم يدرك الفتح والسلام»[٢].

٤ ـ قال له اخوه محمد بن الحنفية: الم تعدني بالنظر فيما سألتك؟ وقد كان سأله ان لا يخرج، فأجابه الإمام الحسين عليه السلام **«بلى، ولكن بعدما فارقتك اتاني رسول الله ﷺ وقال يا حسين اخرج فإن الله تعالى شاء ان يراك قتيلاً.. وان يراهن سبايا»**[٣].

وهناك العديد من النصوص الأخرى التي تدل على انه عليه السلام كان على علم بما سيصير إليه لكنه صمم على الخروج لأهداف لا ترتبط ببقائه حياً، إنما تترتب على شهادته وعلى حصول تلك المأساة في كربلاء.

---

(١) م ن.
(٢) م ن، ص ٢١٩.
(٣) م ن، ص ٢٢١.

تحليل لأهداف الثورة:

وإذا عدنا إلى تلك الأهداف لمناقشتها على ضوء هذا المعطى التاريخي فلابد من القول عندها انه لا يبقى من مبرر للحديث عن الهدف الثاني الذي هو الوصول إلى الحكم وإقامة الحكومة الإسلامية لأن هذا الهدف يتوقف على بقاء الإمام الحسين عليه السلام حياً، فإذا كان الإمام يعلم مسبقاً بشهادته فهذا يعني ان الوصول إلى الحكم لم يكن هدفاً حقيقياً للإمام الحسين عليه السلام وإن كان بحسب الظاهر هو امر مشروع بل ويعد من وظائف الإمامة وان السلطة من الأدوات والوسائل التي يجب ان تعتمد من اجل اقامة العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح في المجتمع وهداية الناس.

وعليه فإن الإمام الحسين عليه السلام بحسب الظاهر كان يسعى إلى الحكم لا من اجل الحكم باعتباره مكسباً دنيوياً بل باعتبار الجانب الوظيفي الإصلاحي والإجتماعي الذي يرتبط بالحكم وإن كان يعلم واقعاً بعدم وصوله إليه ولعل هذا هو مقصود الإمام الخميني (قده) عندما يقول عن الإمام الحسين عليه السلام: «لم يكن يريد ان يجرب ويجازف في تحركه ليعلم هل ينجح ام لا، بل إنه كان قد تحرك ليتسلم زمام الحكومة، وهذا مبعث فخر له ومدعاة افتخار والذين يتصورون ان سيد الشهداء عليه السلام لم ينهض لأخذ زمام الحكم فهم مخطئون، فسيد الشهداء عليه السلام انما جاء وخرج مع صحبه لتسلم الحكم لأن الحكومة يجب ان تكون لأمثال سيد الشهداء عليه السلام . . »[1].

---

(١) نهضة عاشوراء، ص ٤٨.

وعلى ما تقدم إذا لم يكن الإمساك بالحكم هدفاً واقعياً للإمام الحسين عليه السلام لعلمه مسبقاً بعدم تحقق ذلك فلابد أن يكون الهدف الواقعي أمراً آخر فهل هو استنهاض ارادة الأمة ام انه نزع المشروعية السياسية والدينية عن السلطة الأموية والمشروع الأموي تمهيداً لإسقاط السلطة نفسها؟

لا شك أن هذين الهدفين يشتركان في بعض الأمور التي يمكن ان تسهم في دمجهما وتوحيدهما فإستنهاض ارادة الأمة يعني تحريك ارادتها من اجل الإطاحة بالسلطة الأموية والقضاء على ذلك الفساد السياسي والإجتماعي والإقتصادي، وكذلك بالنسبة إلى اسقاط المشروعية السياسية والدينية للسلطة الأموية وتحطيم المدرسة الفكرية للمشروع الأموي فإن هذا العمل يهدف من ضمن ما يهدف إليه إلى اسقاط السلطة الأموية التي تمثل العمود الفقري لذاك المشروع وبالتالي فإن إسقاطها يعني سقوط المشروع الأموي بكامله وانتهاء كل توابعه لسبب بسيط جداً وهو ان قوة المشروع الأموي كانت تقوم على اساس قوة السلطة نفسها اي على القوة السياسية والعسكرية والمقصود بالقوة السياسية ليس إلا قدرة السلطة على ادارة العملية السياسية حتى لو كانت هذه الإدارة لا تعتني بالضوابط الدينية وقواعد العمل السياسي الموروث عن تجربة الحكم الإسلامي السابق، بل هي لا تنبع اساساً من وحي الرؤية الإسلامية للحكم ووظائفه.

فضلاً عن انه يمكن ان يتفقا على مستوى النتيجة بمعنى ان استنهاض ارادة الأمة انما هو من اجل القيام بعملية اصلاح شاملة على كافة المستويات السياسية والاجتماعية وايضاً الدينية والثقافية والفكرية بمعنى ان هذا الجانب من الإصلاح - أي الفكري - يجب ان يكون

ملحوظاً في المشروع الإصلاحي الذي يراد تحريك ارادة الأمة من اجل ان تبادر إلى تطبيقه وتحويله إلى واقع حي.

وهنا نستطيع القول انه فضلاً عن التداعيات التي سوف تتركها التجربة الحسينية فيما يرتبط بالمشروع الأموي فإن لهذه التجربة آثارها المهمة جداً بالنسبة إلى المجتمع الإسلامي العام على مستوى تقديم مثال حيوي وخلاّق وفعال للتضحية والجهاد من اجل الدفاع عن الدين والإصلاح في المجتمع ولا شك ان مفاعيل ذاك المثال سوف تقضي بنسبة كبيرة على المفردات الثقافية التي استقرت بنسبة او اخرى في وعي المجتمع الإسلامي، هذه المفردات التي كانت قد تسللت واستقرت بفعل الأبواق الإعلامية للسلطة وتلك السياسة الثقافية التي جهدت السلطة من اجل نشرها لتسهم في تثبيت قواعدها وديمومتها.

إن النموذج الحسيني سيكنس تلك الثقافة السلطوية ـ ثقافة التخدير والتبرير ـ لصالح بناء ثقافة جديدة هي ثقافة الجهاد والاستشهاد، إن هذا النموذج سوف يتحول إلى قدوة رائعة لكل الأجيال الإسلامية التي سوف تتلاحق ليكون عاملاً محركاً لها في سبيل الدفاع عن الدين واصلاح المجتمع ومقاومة الظلم.

ويجب الإلتفات إلى انه عندما نتحدث هنا عن اصلاح او تغيير على المستوى الثقافي والفكري فإننا نتحدث عن الإصلاح الديني بالتحديد باعتبار ان المصدر المعرفي الوحيد الذي كان يعتمد عليه من اجل تكوين الوعي الإسلامي العام انما هو الدين والمعرفة الدينية.

كما ان عملية الإصلاح الديني ـ على المستوى الثقافي والفكري والتربوي ـ سوف تكون مقدمة من اجل القيام بعملية اصلاح اجتماعي سياسي اقتصادي تؤدي إلى تغيير الواقع الفاسد في تلك الفترة، من جهة ان الوعي العام للمجتمع الإسلامي آنذاك لم يكن قائماً على اساس الفصل ما بين الديني ـ بمعناه الخاص ـ والسياسي الاجتماعي والاقتصادي.

فضلاً عن ان هذه الرؤية لا تريد ان تختزل هدفية الثورة الحسينية بالإصلاح الديني بل تريد ان تقول ان الإصلاح الديني ـ بالمعنى الذي اشرنا اليه ـ هو هدف من الأهداف الأساسية لتلك الثورة بالإضافة إلى الإصلاح على بقية المستويات.

وبالتالي نستطيع القول باختصار ان مؤدى الرؤية الأولى هو ان الثورة كانت تريد ان تحرك ارادة الأمة من اجل القيام بالمشروع الإصلاحي، بينما مؤدى الرؤية الثانية هو ان الثورة كانت تهدف إلى الإصلاح على كافة المستويات الدينية والسياسية والاجتماعية ولذا لا تباين بين هاتين الرؤيتين بل هما مكملتان لبعضهما البعض.

ولا اعتقد ان الرؤية الأولى تريد ان تنفي لحاظ الإصلاح الديني في مشروع الثورة خصوصاً انه إذا عدنا إلى بيانات الثورة فإننا نجد ان هذا الجانب من الإصلاح قد كان ملحوظاً فيها وفي الخطاب الثقافي ـ الإعلامي الذي قدمته للأمة آنذاك، يقول الإمام الحسين عليه السلام في الكتاب الذي ارسله إلى اشراف اهل البصرة:

«... وانا ادعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فإن السنة قد اميتت والبدعة قد احييت فإن تسمعوا قولي اهدكم إلى سبيل الرشاد والسلام

عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

ويقول عليه السلام في الخطبة التي خطبها في الناس في منزل البيضة»:

«ايها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال من رأى سلطانا.. (إلى ان يقول عليه السلام) ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن واظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء واحلوا حرام الله وحرموا حلاله..»[2].

فضلاً عن سعيهم الحثيث للقضاء على المرجعية الدينية والمعرفية لمدرسة الإمامة واختلاقهم للأحاديث لمواجهة مرجعية اهل البيت من جهة ولايجاد منظومة من المفاهيم الدينية[3] والتشريعية التي تبرر مصالحهم السياسية من جهة اخرى، ومن هذه المفاهيم وجوب طاعة الإمام حتى لو كان جائراً ظالماً، وهذا المنطق السياسي نجده مستخدماً بكثرة من قبل اجهزة السلطة ورموزها وخصوصا في حوارهم السياسي مع قادة الثورة ورجالها، ومن هذه المفاهيم وجوب حفظ الجماعة حتى لو كانت على ضلال فإنه يحرم الخروج على الجماعة ومفارقتها وشق عصا المسلمين...

كذلك يحرم نقض البيعة حتى لو كان المبايع حاكماً فاجراً فاسقاً لا يلتزم بالدين ولا بسنة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله، فمن غير الجائز نقض بيعته؛ وسوف ننقل بعض العيّنات التاريخية التي توضح لنا استخدام هذا المنطق.

---

(١) صفحات من تاريخ كربلاء، ص ٢٢١(عن تاريخ الطبري).

(٢) م ن، ٢٣٢ (عن تاريخ الطبري).

(٣) سوف نتحدث عنها لاحقاً بالتفصيل.

بعد ان يقبض على مسلم بن عقيل يقول له ابن زياد:

«يا شاق خرجت على امامك وشققت عصا المسلمين؟».

اما عمرو بن الحجاج ـ احد قادة جيش الكوفة ـ فيعلل عملهم الذي ارتكبوه في كربلاء بقوله: «اننا لم نعص امامنا ولم نفارق الجماعة».

وعندما اراد معاوية إن يأخذ البيعة لإبنه يزيد يذهب إلى المدينة من اجل ارغام المعارضين فيها على اعطاء البيعة ليزيد، وكان من جملة المعارضين زوجة النبي عائشة، ومن اجل ان يقنعها بالبيعة قال لها:

انني قد اخذت البيعة ليزيد من جميع المسلمين فهل تجيزين لي نقضها، فتكون تلك البيعة كأنها لم تكن ويخلع الناس عهودهم[1]؟.

الإصلاح الديني في رؤية الإمام الخميني والقائد الخامنئي:

ولذا نتيجة هذه الأعمال فقد اصبح الخطر على الدين نفسه وعلى وجوده، قول الإمام الخميني (قده) «بعد رحلة النبي الخاتمﷺ ـ مُرسي اسس العدالة والحرية ـ اوشك الإسلام ان ينمحي ويتلاشى بسبب انحرافات بني امية وكاد يسحق تحت اقدام الظالمين ويبتلع من قبل الجبابرة، فهب سيد الشهداءعليه السلام لتفجير نهضة عاشوراء العظيمة»[2].

---

(١) يرجع إلى: رسول جعفريان ،الحياة الفكرية والسياسية لأئمة اهل البيت عليهم السلام، ج١، صص ١٣٦ ـ ١٣٩.

(٢) نهضة عاشوراء، ص ٣٧.

ويقول ايضاً: «لقد اوشكت حكومة يزيد ـ وجلاوزته ـ الجائرة ان تمحو الإسلام وتضيع جهود النبيﷺ المضنية وجهود مسلمي صدر الإسلام ودماء الشهداء وتلقي بها في زاوية النسيان. . .»[1].

ويقول الامام الخامنئي حفظه الله:

«كانت العبادة والتضرع والتوسل والاعتكاف في حرم الرسول والرياضة المعنوية والروحية احد اطراف القضية والطرف الآخر هو سعيه الحثيث في نشر العلم والمعرفة ومجابهة التحريف، كان التحريف آنذاك أكبر تحدٍ معنوي يهدد الإسلام ويجري كالسيل الجارف من الفساد والماء الآسن فيركد في اذهان ابناء المجتمع الإسلامي، وهو عصر جرى فيه التأكيد على الولايات والبلدان والشعوب الإسلامية بلعن اعظم شخصية في تاريخ الإسلام[2]».

ايضاً عن الإمام الحسينعليه السلام يقول «. . وفي المجال الثقافي ايضاً دأب على مكافحة التحريف ونشر الأحكام الإلهية وتربية التلاميذ والشخصيات الكبيرة. .»[3].

ويقول ايضاً: «تارة ينحرف الناس ـ وهذا ما يقع كثيراً ـ لكن تبقى احكام الإسلام سليمة، وتارة ينحرف الناس ويفسد الحكام والعلماء ومبلغو الدين، فيحرفون القرآن والحقائق وتبدل الحسنات سيئات والسيئات حسنات، ويصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً ويحرّف الإسلام ١٨٠

---

(١) نهضة عاشوراء، ص ٣٧.

(٢) (٣) عاشوراء في فكر الإمام الخامنئي، صص ٢٧ ـ ٢٨.

درجة، فما هو التكليف حينذاك اذا ما ابتلي النظام والمجتمع الإسلامي بهذا الأمر؟»[1].

ويجيب «ان الإسلام قد انحرف في عصر الإمام الحسين عليه السلام وكان الوقت مناسباً لذا وجب عليه ان يثور فالشخص الذي تولى السلطة بعد معاوية لم يراع حتى ظاهر الإسلام..»[2].

ثم يذكر هذا الموضوع بالتفصيل ويأتي بالشواهد عليه من النصوص التاريخية التي نقلت عن الإمام الحسين صلوات الله وسلامه عليه وآله[3].

إن كل ذلك يثبت ما اشرنا اليه من وجود صراع معرفي ديني وإن اختلفت دوافعه ومنطلقاته، وان السلطة كانت تدرك اهمية الديني وارتباطه بالسياسي ولذا حتى تمتلك مشروعيتها السياسية لابد ان تمتلك مشروعيتها الدينية ومن هنا اقبلت على الديني من اجل ان تصنعه بطريقة تخدم فيها مصالحها واستقرارها؛ بل نجد لدى بعض سلطات الخلافة اهتماماً بالشأن المعرفي سواء كان في داخل البيئة المعرفية الإسلامية او خارجها وهذا ما قد يطرح السؤال حول مبررات الإستعانه المعرفية بثقافات ومرجعيات اجنبية؟

الاصلاح الديني في رؤية الشهيد المطهري:

يتحدث الشهيد مطهري عن استغلال الأمويين للعامل الديني

---

(١) (٢) م ن ص ٤٢ ـ ٤٤.

(٣) يرجع م ن، ص ٤٨ ـ ٥١.

والاستفادة التي حصلوا عليها من خلال توظيفهم لهذا العامل فيقول:

«لقد تمكن الامويون من السيطرة على بيت المال والمراكز الحساسة للسلطة بعد نهاية عهد حكومة عثمان ومع تمكنهم من الثروة والمراكز الحساسة لم يعد ينقصهم في الواقع سوى ذلك العامل القوي والاساسي إلا وهو عامل الدين. لكن معاوية تمكن بعد قتل عثمان ومن خلال حركته الذكية وتلفيقه الشيطاني لرواية كيفية مقتل عثمان من الإمساك بهذا العامل أيضاً واستخدامه في صراعاته السلطوية.

وهكذا تراه قد تمكن من تعبئة جيش عظيم باسم الدين وتحت لواء الشريعة الإسلامية وتحريضه لقتال شخص مثل علي بن أبي طالب عليه السلام. ومن بعد ان تسلم معاوية السلطة كاملة تمكن من السيطرة على العامل الديني تماماً من خلال استئجار عدد من رجال الدين المرتزقة امثال ابي هريرة. وهكذا يكون قد اضاف عاملاً جديداً إلى عوامل حكمه وهو عامل الروحانية وطبقة الروحانيين بعد ان كان لايملك سوى عناصر السياسة والمراكز الحساسة والثروة....»[1].

ويشير إلى بعض المفاسد على مستوى المعرفية الدينية التي احدثتها السلطة الأموية خلال فترة حكم معاوية فيقول:

«... صحيح ان معاوية قد مات لكنه مع موته ترك وراءه عدداً من السنن السيئة والتي هي:

---

(١) الملحمة الحسينية، ج٣، ص١٢.

أ ـ بدعة لعن علي وسبه.

ب ـ بدعة صرف اموال الدولة في شراء ذمم بعض الرجال من الروحانيين المرتزقة وأمرهم بتزوير الأحاديث التي تنقص من قيمة علي عليه السلام وبعبارة اخرى استخدام العامل الروحاني الذي تمثل آنذاك بعلماء السوء ضد علي عليه السلام تماماً كما استخدم من قبل العامل الديني في قضية قتل عثمان (قصة سمرة بن جندب مع الآية: ﴿**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله**....﴾).

ج ـ قتل الأبرياء بدون حق وهي بدعة جديدة أيضاً لم يكن لها سابقة في الاسلام، بالاضافة إلى عدم احترام النفس البشرية، وقطع الأيدي والأرجل، وقطع الرؤوس وحملها على الحراب وهو ما فعله رجال معاوية بعمرو بن الحمق الخزاعي.

د ـ تسميم المعارضين، واعتبار ذلك امراً عادياً وهو الأمر الذي يخالف كل اوجه المرؤة والإنسانية، لكنه للأسف كان قد اصبح سنة متبعة عند الخلفاء من بعد معاوية، هذا وقد ابتدأ معاوية هذه السنة السيئة بتسميم كل من الإمام الحسن عليه السلام ومن ثم اتبعه بمالك الأشتر وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد الذي كان من افضل انصار الحسن عليه السلام.

هـ ـ جعل الخلافة وراثية في بني أمية وتعيين ابنه يزيد ـ الذي لم يكن يحمل كفاءات تذكر ـ ولياً للعهد من بعده.

و ـ بعث قضية التمييز العنصري من جديد وترجيح العربية على العجمية، والقرشية على غير القرشية»[1].

---

(١) م ن، ص١٨ ـ ١٩.

كما ان الأمويين اثاروا بعض المفاهيم التي كانت سائدة ايام الجاهلية والتي عمل الاسلام على ابادتها ،لكنهم اعادوا احياءها كالعصبية العرقية كما ان الاسلام في الوقت الذي جعل فيه للشعر مجالاً خاصاً ومحدوداً ودفع الناس للتأدب بأدب القرآن واخلاق النبي ودعا إلى الاعتبار بما ينقله لنا كتاب الله تعالى عن الماضين والى الاسترشاد بهدي الدين؛ فإنا نرى ان معاوية يجعل كل ذلك الدور للسان الشعر يقول الشهيد مطهري:

«إن من جملة ما كان يروج له الأمويون ويدافعون عنه بإصرار هي فكرة التعصب العرقي....

السمة الثانية من سمات السياسة الأموية هي ترويجهم للشعر، لاسيما الشعر الجاهلي.

فإضافة إلى ترويجهم للشعر كشعر وكقيمة جمالية بحد ذاته فإنهم كانوا يريدون الإيحاء إلى الناس بأن الحكمة أيضاً إنما تكمن أكثر ما تكمن في الشعر.

ففي المجلد الرابع لـ(ابن خلّكان في الصفحة ٣٢٨ منه، وفي سياق شرح سيرة ابي عبيدة النحوي ورد:

وذكر المبرّد في كتاب الكامل ان معاوية بن أبي سفيان قال:

اجعلوا الشعر اكبر همكم وأكثر آدابكم فإن فيه مآثر اسلافكم، ومواضع ارشادكم فلقد رأيتني يوم الهزيمة وقد عزمت على الفرار، فما ردني الا قول ابن الإطنابة الأنصاري:

أبـت لـي عـفّـتـي وأبـى بـلائـي وأخـذي الـحـمـد بـالـثـمـن الـربـيـح
واجبشامي على المكروه نفسي وضـربـي هـامـة الـبـطـل الـمـشـيـح
وقـولـي كـلـمـا جـشـأت وجـاشـت مـكـانـك تـحـمـدي او تـسـتـريـحـي
لأدفـع عـن مـآثـر صـالـحـات واحـمـي بـعـد عـن عـرض صـريـح

وما عبارات معاوية هنا في الواقع سوى تعبير عن مناهضته للمقولة القرآنية ﴿**الشعراء يتبعهم الغاوون**....﴾ ومحاربته للسنة النبوية الشريفة....»[1].

ويتحدث الشهيد المطهري عن ذاك الأثر الذي احدثته ثورة الإمام الحسين عليه السلام وما ترتبت على شهادته من إحياء للإسلام من جهة ان حدث الشهادة خلق حس الشخصية في المجتمع الإسلامي، أي بمعنى ان يشعر المجتمع بوجوده ومكانته وامتلاكه للعزة والكرامة وقدرته على التأثير في مجريات الأمور وعلى ان يكون صاحب قرار؛ يقول الشهيد مطهري:

«كثيراً ما يتردد على لساننا القول بأنّ الحسين بن علي عليه السلام قد أحيا بتضحياته رسالة الإسلام من جديد، وسقى شجرته بدمائه الزكية الطاهرة. ونقرأ في زيارته كذلك: «**أشهد أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وجاهدت في الله حق جهاده**».

ولابد لنا أن نتساءل هنا عن العلاقة الموجودة بين شهادة الحسين بن علي عليه السلام وبين استنهاض قوة الإسلام، وإحياء أصول الدين وفروعه؟ ذلك أنّ مجرد سيل الدم لوحده لايمكن أن يكون منشأً لمثل هذه الأمور. فما هي العلاقة حقاً بين نهضة الحسين، وقيامه وشهادته،

---

(١) م ن، ص٦٦ ـ ٦٧.

وشهادته، وهذه الآثار التي نتحدث عنها وندَّعي حصولها وهو ما يبرهنه التاريخ بالفعل؟ . . .

إن شهادة الحسين بن علي نفخت روحاً جديدة في الإسلام. وكما قلنا في (المحاضرة الأولى) فإنّ الأثر الناتج عن أية خطبة أو واقعة أو شخصية حماسية نراه في الواقع في موج الحركة الذي ينبعث في الروح وفي الحمية والغيرة التي تتولد معها والشجاعة والصلابة المترتبة على ذلك. إنها تعبير عن حركة الدماء وغليانها في الأبدان وخروج الأجسام من حالة الكسل والخمول إلى عالم النشاط والفعالية وخفة الحركة. فهناك عمليات سيل للدماء كثيرة تحدث هنا وهناك لكنها لّما كانت لاتحمل معها إلاّ بُعد النزيف الدموي فإنّ أثرها يقتصر على إيجاد الرُعب والهول في نفوس الناس وإضفاء مزيد من الوحشة عليهم وخنق للأنفاس في الصدور وسلب للقوة الشعبية. . .

لقد وضع الحسين يده على الجرح ـ كما يقول المثل ـ أي إنّه بعمله هذا حرّك حسن الشخصية في المجتمع، وهذه المسألة مهمة للغاية إذ ليس هناك رأسمال أثمن وأغلى من هذا الرأسمال لأي مجتمعٍ كان، أنْ يحسّ المجتمع بوجود شخصية خاصة به وأنْ يتولد عنده إحساس بالعزة والكرامة وامتلاك لقيم مثالية تخصه دون غيره من المجتمعات الأخرى بحيث إنه يصبح مكتفياً ذاتياً وعندما يصل مجتمع ما في سُلم التطور إلى مثل هذه الحالة، أي أن تصبح لديه فلسفة مستقلة في الحياة، يستطيع المباهاة بها، الفخر بحياته المستقلة القائمة على تلك الفلسفة، عندها يمكن القول بأنّ هذا المجتمع استطاع الحفاظ على حماسه وملحميته ذلك أنّه استطاع أن يحافظ على فلسفته المستقلة الخاصة النابعة من كيانه

ووجوده وأنْ يؤمن بها ويعتقد بأنها هي الأفضل والأرقى والأحسن، وأن من حقه التباهي بها بين الأمم.»[1]

وهنا نعود إلى السؤال الذي طرحناه آنفاً عن تلك الإستعانه بمرجعيات وثقافات اجنبية ومدى دخالتها بالشأن السياسي ، ومن المفيد ان نستعين هنا بتلك القراءة المعاصرة للعلاقة بين المعرفي والسياسي .

المعرفي والسياسي لدى اركون:

إن قريباً من هذا السؤال قد طرحه محمد اركون في كتابه «نافذة على الإسلام» حيث يقول: «ورث الإسلام التراث اليوناني ونقله إلى الغرب بدءاً من القرن الثاني عشر فهل يرجع هذا الإنفتاح على الفلسفة والعلم اليونانيين إلى فضول المسلم الفكري في ذلك الزمان ام إلى توصية صريحة من القرآن الكريم والنبي؟» ثم يقول: «إنها لواقعة تاريخية ان الفلسفة والعلم اليونانيين عرفا انتشارا سريعا في المناخ الإسلامي من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر، لا القرآن الكريم ولا النبيﷺ حثا على دراسة هذه المواد، بل على العكس من ذلك فمنذ القرن التاسع ظهرت معارضة قوية من الأوساط الدينية للعلوم التي تدعى العلوم العقلية وهي ما يقابل العلوم الدينية والنقلية».

وبعد ان يفسّر تلك الظاهرة بتجذر الفكر اليوناني في الشرق الأوسط يقول «وتقع مرحلة الترجمة الكبرى في عهد الخليفة العظيم المأمون عام (٨١٣ ـ ٨٣٣) مؤسس دار الحكمة الشهيرة في بغداد»[2].

فنلاحظ ان اركون يحصر احتمالات الإنفتاح على الفلسفة والعلم

---

(١) م ن، ج١، ص١٢١ ـ ١٢٣.

(٢) ص ١١٧.

اليونانيين إلى امرين: فضول المسلم الفكري او التوصية من النبي والقرآن ثم يخلص إلى ان السبب هو تجذر الفكر اليوناني في الشرق الأوسط.

والعجيب ان اركون لم يتحدث عن احتمال دخالة السياسي في تلك الحملة المعرفية، بمعنى ان السلطة ـ اموية او عباسية ـ تريد انشاء مدرسة معرفية فكرية ثقافية من اجل ان تواجه من خلالها مدرسة المعارضة باعتبار ان هذه المدرسة تملك من المقومات العلمية والمعرفية ما يجعلها الرائدة في الحقل المعرفي مع ما يملك ذلك من دلالات على المستوى الإجتماعي والسياسي وبالتحديد عندما تكون تلك المعرفية منتمية إلى الحقل الديني.

واركون نفسه بعد ان يتحدث عن التاريخ الرسمي وسعي السلطة الحثيث لفرض رؤيتها ومفاهيمها للأحداث بطريقة تناسب مصالحها بواسطة «كتبة التاريخ او نقلة الأخبار المتحمسين للدولة الرسمية (اي الأموية والعباسية اساساً) يقول «لقد حاول هؤلاء ـ كما هو متوقع ـ حذف خصومهم وفرض صورة عن الأحداث تناسب مصالحهم ودعوها بالصورة الإسلامية، في حين انها صورة حزب واحد او جهة واحدة فقط» إلى ان يقول «وفي الوقت الذي راح فيه جهاز الدولة المركزي للسلطة يتبلور ويترسخ ويوسع من صلاحياته وكفاءاته ويفرض خياراته الأيدولوجية على يد الأمويين اولاً ثم العباسيين ثانياً ظلت مسألة شرعية الزعيم ـ الوسيط مطروحة وعرضة للنقاش والجدل»[1].

---

(١) الإسلام الأخلاق والسياسة ص ٢٣٤ ـ ١٣٥.

وهو يشير إلى انه قد التفت إلى دخالة السياسي مع الديني والمعرفي، وإلى وجود جهاز معرفي ـ علماء البلاط ـ حاضر من اجل ان يقدم خدماته الدينية للسلطة الحاكمة التي كانت تسعى لتقديم المادة المعرفية التي تنسجم ومصالحها.

المعرفي والسياسي لدى الجابري:

يشير الجابري إلى ارتباط السياسي بالديني فيقول:

«إن الوضع الذي تسرب إلى الحديث النبوي بدوافع سياسية لابد ان يكون قد تسرب بقوة إلى الروايات التي كانت تنقل شفهياً وعلى مدى قرنين من الزمان، اخبار ما جرى في الماضي وخاصة ما يتعلق بالأحوال السياسية...»[1].

وقد كان واضحاً في تحليله لعملية الإستيراد المعرفي التي عملت السلطة العباسية على تنظيمها ورعايتها إذ لم يكن ذلك بعيداً عن المصالح الزمنية للسلطة العباسية، يقول: «إذن فحركة الترجمة التي نشطها المأمون وجند امكانيات دولته من اجلها والتي اتجهت إلى ارسطو اساساً انما كان الهدف منها مقاومة الغنوص المانوي والعرفان الشيعي اي مصدر المعرفة الذي تدعيه وتنفرد به الحركات المعارضة للعباسيين، وإذن فحركة الترجمة تلك التي اتجهت إلى ارسطو بالذات كانت جزءاً وجزءاً اساسياً ورئيسياً من استراتيجية جديدة لجأ اليها المأمون لمقاومة الأساس المعرفي

---

(١) تكوين العقل العربي، ص ١١٠.

لأيديولوجيا خصومه السياسين»[1].

ويصرح بأن الأيديولوجيا قد كانت في خدمة السياسة ـ طبعاً هذا الأمر لا يصدق على مدرسة الإمامة ونهجها السياسي ـ فيقول موضحاً:

«والواقع ان الصراع بين العباسيين والعلويين ـ الذي استفحل بعد ان انهار التحالف بينهما بسبب استئثار بني العباس بالحكم مباشرة اثر نجاح ثورتهما المشتركة ضد الأمويين ـ لم يكن صراعاً سياسياً وعسكرياً وحسب لقد كان ايضاً ولربما بدرجة اشد وبصورة اكثر دواماً واتصالاً صراعاً ايديولوجياً وبطبيعة الحال فلقد كانت الأيديولوجيا كما هو الحال دائماً من اجل السياسة وليس العكس»[2].

إن الفكرة التي قدمها الجابري لهي فكرة جديرة بالتقدير ان الصراع لم يكن صراعاً سياسياً فقط بل كان ايضاً صراعاً معرفياً دينياً توظف فيه المعرفية الدينية من اجل المصالح السياسية لكن اولاً لا يمكن اطلاق هذه العبارة بشكل يستوعب كل اطراف الصراع؛ إذ انه يمكن بقدر أكثر سهولة ان نقول بجدل السياسي والديني، لكن ايهما لدى هذا الطرف او ذاك في خدمة الآخر؟ فهو يحتاج إلى بحث مستأنف وإلى معالجة مختلفة لا نصادر فيها النتائج مسبقاً.

والأمر الثاني الذي ينبغي الإشارة إليه هو ان الجابري لم يكن موفقاً عندما حصر المدرسة المعرفية والفكرية للمسلمين الشيعة بالعرفان بل قد اتهم

---

(١) م ن، ص ٢٢٤.

(٢) م ن ، ص ٢٢٥.

الشيعة بالهرمسة وقال عنهم بأنهم اول من تهرمس في الإسلام؛ مع ان ما يجب قوله هو ان المدرسة المعرفية الفكرية للمسلمين الشيعة كما تستوعب العرفان فإنها تستوعب ايضاً البيان والبرهان، والمنهج المعرفي الشيعي قائم على استحضار النص الديني بل إن الدور الذي يأخذه ذاك النص هو دور متميز وواسع، فضلاً عن تلك المساحة المهمة التي يشغلها العقل في ذاك المنهج والدور التأسيسي الذي يلعبه في بناء صرح الفكر الشيعي معرفياً وكلامياً وفلسفياً بل وحتى دخالته في تحديد بعض القضايا الفرعية بناءً على تقنين خاص مراعى في تقنيات العلوم المختصة.

اما قضية الهرمسية فقد كانت خطأً فادحاً ارتكبه الجابري لأن ادنى اطلاع على الفكر الشيعي يثبت بشكل واضح انه بعيد عن اصول الهرمسية ومعتقداتها خصوصاً في قضية الألوهية والنفس والكون[1].

بل الملاحظ ـ وهو ما يذكره الجابري نفسه ـ ان الطرف المقابل للشيعة ـ كالعباسيين ـ هو الذي كان يقوم بعملية الإستيراد المعرفي سواء لتلك العلوم «المستقيلة» او للفلسفة وغيرها.

إضاءة على حقيقة تارخية:

ويبرز الجابري حقيقة تارخية مهمة لها دلالتها التي يجب الوقوف عندها، يقول «فعلاً تجمع المصادر العربية على أن خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ١٨٥ كان اول من اشتغل في الإسلام بالعلوم القديمة

---

(١) للإطلاع اكثر يمكن الرجوع إلى كتابنا دراسات في الفكر الديني في بحث الشيعة وهرمسية الجابري.

وبالخصوص منها الكيمياء والتنجيم والطب وانه قد نقل ذلك من الاسكندرية التي قلنا عنها إنها كانت موطن الهرمسية، والبيانات التالية تؤكد الأصل الهرمسي لتلك العلوم»[1].

والآن نعود الى طرح هذا السؤال: لماذا يكون خالد بن يزيد بن معاوية هو اول من ينقل العلوم القديمة إلى الثقافة الإسلامية؟ وهل ان عملية الإستيراد هذه منفصلة عن حلبة الصراع المعرفي ـ السياسي؟

إن مما لا شك فيه ان السلطة الأموية كانت تحتاج إلى تأسيس مدرسة معرفية من اجل مجابهة مدرسة الخصم ـ المعارضة ولا شك ان وجود نتاج معرفي خارج اطار الجغرافية المعرفية الدينية يغري تلك السلطة باستحضاره من اجل توظيفه في تلك المواجهة المعرفية ـ السياسية وبالتالي ليس من البعيد أبداً ان تكون عملية الاستيراد تلك مرتبطة بمشروع السلطة الساعي إلى تكوين مرجعيته المعرفية ومدرسته الفكرية الخاصتين به.

خصوصاً ان خالد بن يزيد هذا قد عايش تلك الفترة التي احتدم فيها الصراع بين المشروع الأموي والمشروع النبوي المتمثل بأهل البيت عليهم السلام والأئمة المعصومين عليهم السلام، وليس من البعيد أنه ادرك تلك التداعيات التي تركتها شهادة الإمام الحسين عليه السلام على مجمل الأوضاع وعلى المشروع الأموي خاصة.

إن الشيخ المفيد رضوان الله عليه ينقل في كتابه الإرشاد حادثة ربما كان لها الأثر في دفع خالد بن يزيد للقيام بعملية الإستيراد المعرفي

---

(١) م ن ، ص ١٩٤.

يقول: «لما وضعت الرؤوس بين يدي يزيد وفيها رأس الحسين عليه السلام قال يزيد:

نفلّق هاماً من رجال اعزةٍ علينا وهم كانوا اعق واظلما

فقال يحيى بن الحكم ـ أخو مروان بن الحكم ـ وكان جالساً مع يزيد:

لهام بأدنى الطف ادنى قرابة من ابن زياد ذي الحسب الرذل
امية امسى نسلها عدد الحصى وبنت رسول الله ليس لها نسل

فضرب يزيد في صدر يحيى بن الحكم وقال: اسكت؛ ثم قال لعلي بن الحسين: يا بن حسين، ابوك قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما قد رأيت، فقال علي بن الحسين:

﴿ما اصاب من مصيبة في الأرض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾.

فقال يزيد لابنه خالد: اردد عليه، فلم يدر خالد ما يردّ عليه»[1].

لقد فرض عليه ابوه يزيد امتحاناً مع منافسه ـ علي بن الحسين عليه السلام ـ في مجلس عام فكانت النتيجة انه فشل في ذاك الإمتحان الذي يرتبط بالمعرفية الدينية والنص الديني.

إن خالد بن يزيد هذا هو الذي يقول عنه ابن كثير «كان يقال انه أصاب علم كيمياء»[2].

---

(١) الإرشاد، ج ٢، ص ١٢٠.

(٢) البداية والنهاية، مج ٤، ص ١٩٠.

والعبارة ذاتها يذكرها الطبري بتغيير بسيط اذ يذكر بدل «عبارة علم كيمياء» عبارة «عمل كيمياء».

إن هذه العبارة وإن كانت توحي بنوع من الإهتمام المعرفي لخالد هذا لكن مما لا شك فيه انه عايش ازمة المشروعية التي عاشها المشروع الأموي خصوصاً أن الخلافة قد انتقلت بعد ابيه إلى اخيه معاوية الذي تركت استقالته من الخلافة مشكلة سياسية كبيرة ،إذ ان خطاب الإستقالة الذي ادلى به كان خطاباً في المشروعية السياسية يسعى لإبراز آليات الإستخلاف المتبعة في تجربة دولة الخلافة والتي تفتقدها السلطة الأموية.

إن خالد هو الذي صلى على اخيه معاوية الذي ينقل ابن كثير بيان استقالته فيقول «معاوية بن يزيد هذا نادى في الناس الصلاة جامعة ذات يوم فاجتمع الناس فقال لهم فيما قال: يا ايها الناس اني قد وليت امركم وانا ضعيف عنه فإن اجبتكم تركتها لرجل قوي كما تركها الصديق لعمر وإن شئتم تركتها شورى في ستة منكم كما تركها عمر بن الخطاب، وليس فيكم من هو صالح لذلك وقد تركت لكم امركم فولوا عليه من يصلح لكم»[1].

وكما تجدر الإشارة إلى ان خالد كان من المرشحين للخلافة بعد وفاة اخيه معاوية، وإن كانت المفاوضات داخل البيت الأموي قد افضت إلى نتيجة مغايرة وهي ان يكون مروان بن الحكم هو الخليفة على ان يكون خالد ولي عهده، وإن كان مروان هذا قد عمل لاحقاً على حصر

---

(١) البداية والنهاية، مج ٤، ص ١٩١.

الخلافة في البيت المرواني وابعدها عن البيت السفياني وهذا ما ادى إلى مقتله، يقول د. نبيه عاقل: «وبعد ان وصل مروان إلى الخلافة عمل جاهداً للإبقاء على سلطانه ولتوريث هذا السلطان لأولاده من بعده، ومن اجل ذلك تزوج من أرملة يزيد فاخته (ام خالد بن يزيد) وهي ابنة أبي هشام بن عتبة، وقد استطاع بهذا الزواج ان يستميل آل يزيد وان يتخلص بالتالي من مرشحهم للخلافة خالد بن يزيد إذ انه ما لبث فترة حتى خلعه وأخذ البيعة من بعده لإبنيه عبد الملك ثم عبد العزيز بن مروان، وفي المصادر ذكر للأسلوب الذي اتبعه مروان في خلع خالد والطريقة التي اتبعها في تصغير شأنه امام الناس وكيف شكا خالد إلى أمه (فاخته) ما صنع به مروان وكيف انتقمت ام خالد لابنها بأن خنقت مروان بواسطة وسادة غطته بها وامسكتها عليه حتى مات»[1].

وعليه فإن خالداً كان من المرشحين للخلافة ومن المعنيين بالسلطة ولذا ليس من البعيد ان يكون ما اقدم عليه من استيراد معرفي مرتبطا بمشروع السلطة فيما يرتبط بالمشروعية المعرفية؛ وإن امكن القول في المقابل ان السلطة الأموية في تلك الفترة كانت في غنى عن هذا الإستيراد من اجل قضية المشروعية وإن كانت الفائدة منه ليست معدومة.

المؤسسة الدينية السلطوية:

من الأسئلة التي تطرح في هذا المجال ان السلطة هل سعت لتكوين مؤسسة دينية تابعة لها وتعمل بإمرتها وتضم مجموعة من فقهاء

---

(١) تاريخ خلافة بني امية، ص ١٣٤.

السلاطين وعلماء البلاط ليكونوا ادوات دينية في خدمة مشروعها ام انها لم تكن في صدد هذا الإمر؟ إن الواضح من خلال بعض الروايات التاريخية ان السلطة قد استطاعت ان تستفيد من بعض الرواة مستخدمة سلاح الترغيب واسلوب الإغراء المالي لتقديم المادة المعرفية التي تنسجم ومصلحة السلطة، ينقل ابن ابي الحديد عن شيخ المعتزلة الإمام ابو جعفر الإسكافي انه قال: «ان معاوية حمل قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية اخبار قبيحة في علي عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله فاختلفوا له ما ارضاه؛ منهم ابو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ومن التابعين عروة بن الزبير...»[1].

وفي هذا الموضوع يقول الإمام علي عليه السلام:

«وقد كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على عهده حتى قام خطيباً فقال: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار؛ وإنما اتاك بالحديث اربعة رجال ليس لهم خامس: رجل منافق مظهر للإيمان متصنع بالإسلام، لا يتأثم ولا يتحرج، يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متعمداً، فلو علم الناس أنه منافق كاذب لم يقبلوا منه، ولم يصدقوا قوله، ولكنهم قالوا: صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رآه وسمع منه ولقف عنه فيأخذون بقوله، وقد اخبرك الله عن المنافقين فيما أخبرك، ووصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده، فتقربوا إلى ائمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولوهم الأعمال، وجعلوهم حكاماً على رقاب الناس، فأكلوا بهم الدنيا، وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم الله، فهذا احد الأربعة...»[2].

---

(١) الإمام شرف الدين النص والاجتهاد، ص ٣٦٨ (عن شرح النهج لإبن ابي الحديد).
(٢)نهج البلاغة، خ٢٠٣.

إن الطعن في عليعليه السلام هو مادة من تلك المواد التي كانت تعتني فيها السلطة وتشتريها من الرواة، وهي وإن كانت مادة مهمة تغري السلطة ببذل الكثير من الأموال من اجل صناعتها، لكنها لم تكن المادة الوحيدة باعتبار ان مشروعها على المستوى المعرفي الثقافي كان يتمثل في خطين عنت بهما معاً ،ويتمثل الخط الأول في السعي لتحطيم الصورة المعنوية لأهل البيتعليهم السلام والقضاء على مرجعيتهم الفكرية ويتمثل الخط الثاني في السعي لبناء مدرسة السلطة على المستوى المعرفي والثقافي.

لكن قبل الدخول في هذا البحث نريد أن نعاين تلك المجالات التي امتدت إليها يد الفساد المعرفي للسلطة الأموية لنرى ماهي العلوم التي احدثت فيها وحاولت الإستفادة منها.

الأدوات المعرفية للسلطة:

إن السلطة الأموية حاولت الإستفادة من علوم عديدة لتكون بمثابة ادوات معرفية لها لكن من الواضح انها تركت آثارها بشكل خاص في علوم الحديث والتفسير والكلام:

١ ـ الحديث:

إن حديث رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم كان له دور خاص في تشكيل الوعي الديني للمجتمع الإسلامي ولذلك كان محل اهتمام السلطة من اجل استخدامه كسلاح معرفي فعال لخدمة اهدافها سواءً ان ارادت ان ترفع اقواماً او ان تضع اقواماً آخرين.

وقد عمل معاوية على الاستفادة من هذا السلاح فحمل الناس على رواية مرويات محددة لأغراض خاصة وقد ارسل الكتب إلى عماله من أجل هذه الغاية ؛ يقول المدائني: «.. قرئت كتبه (معاوية) على الناس، فرويت اخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس

في رواية هذا المجرى حتى اشادوا بذكر ذلك على المنابر، والقي إلى معلمي الكتاتيب فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير... فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة وكان اعظم الناس في ذلك بليّة القرّاء المراؤون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك، فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجالسهم ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل، حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديّانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها وهم يظنون انها حق ولو علموا انها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها»[1].

وسوف نتحدث في العناوين اللاحقة بشيء من التفصيل حول بعض الأحاديث التي عملت الأبواق الإعلامية التابعة للسلطة على نشرها وترويجها بعد ان تم وضعها بعناية فائقة لترضي الولاة وتجني الهبات.

٢ ـ التفسير:

إن علم التفسير وإن كان من العلوم التي يعتمد فيها آنذاك بشكل اساسي على الحديث ـ اي ان التفسير كان تفسيراً حديثياً ـ لكنا فصلناه في عنوان مستقل لنركز هنا على ذاك الحديث الذي كان يُنتج لتفسير بعض آي القرآن الكريم.

ان السلطة الأموية حاولت ان تستفيد من اقوى اداة معرفية لدى المجتمع الإسلامي على مستوى القدسية الا وهي القرآن الكريم من اجل

---

(١)مرتضى العسكري، معالم المدرستين، ج٢، ص ٥٥ ـ ٥٦ (عن شرح النهج لإبن ابي الحديد).

توظيفها في معركتها السياسية، فكان ان حاولت شراء بعض الأحاديث من سماسرة الرواية من اجل ان توجه ضربة قاسية إلى الخصم السياسي ـ المعرفي مستخدمة سلاح المال وشراء ضمائر الرجال، تلك الرجال التي كان معاوية يعمل على اعطائها هالة من القدسية بعنوان صحبتها لرسول الله ﷺ ليكون لها نفوذها المعرفي وهذه القصة التي سوف ننقلها تشير إلى تدني المستوى القيمي والمبدأي لدى البعض واستعداده للدس والوضع في تحديد مصداق بعض الآيات الكريمة.

ذكر ابن أبي الحديد عن ابي جعفر الإسكافي انه قال في سمرة بن جندب: «قد رُوي ان معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي ان هذه الآية نزلت في علي عليه السلام ﴿**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد**﴾ وان الآية الثانية نزلت في ابن ملجم وهي قوله تعالى: ﴿**ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله**﴾؛ فلم يقبل فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل؛ فبذل له أربعمائة الف درهم فقبل!»[1].

٣ ـ علم الكلام:

إن السلطة الأموية لم تستثنِ وسيلة معرفية إلا وحاولت الاستفادة منها وهي بالتالي لم توفر المعارف العقائدية فآمتد فسادها المعرفي إلى تلك الأسس العقائدية التي يرتكز عليها الفكر الإسلامي.

---

(١)مرتضى العسكري، احاديث ام المؤمنين عائشة، ج١، ص ٣٧٥.

ولذا قال الأمويون بالجبر والإرجاء[1] وإن كان جل تأكيدهم كان على قضية الجبر التي وجدوا فيها ملاذاً معرفياً قد يسهم في تقديم نوع من التبرير الديني لوصولهم إلى الحكم ويرفع عنهم مسؤولية تلك الأفعال الشنيعة التي ارتكبوها اثناء حكمهم او من اجل اعطائها نوعاً من الشرعية الدينية ومن المقبولية في المجتمع الإسلامي.

وهنا سأكتفي بنقل نص دال لأحد الباحثين تاركاً التفصيل إلى البحوث القادمة يقول: «اعتنق الأمويون مذهب الجبر في الخلافة منذ صدر دولتهم وكان زياد بن أبيه أول من بشرَ به منهم فهو يقول في خطبته البتراء لأهل البصرة سنة خمس واربعين معلنا ان الله اختارهم للخلافة وانهم يحكمون بقضائه ويعملون باذنه: «ايها الناس إنا اصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا...» ،ولم يزل الأمويون يعتقدون مذهب الجبر في الخلافة بعد ذلك ويستندون إليه في تقرير حقهم فيها ويسوغون به استئثارهم فيها إذ يقول يزيد بن معاوية في كتاب له إلى عامل المدينة.. «إن معاوية بن سفيان كان عبداً من عبيد الله أكرمه الله واستخلفه وخوله ومكن له.. وقد قلدنا الله عز وجل ما كان إليه»[2].

المشروع المعرفي[3] الثقافي للسلطة:

قد يطرح البعض هذا السؤال أنه ألا يكون من المبالغة القول

---

(١)سنأتي لاحقاً على الحديث فيهما تفصيلاً.

(٢)حسين عطوان، الأمويون والخلافة، ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٣) المقصود به المعرفي بمعناه العام لا بمعناه الخاص (ابيستمولوجي).

بوجود مدرسة ثقافية للسلطة الأموية إذ ان القول بوجود مدرسة ثقافية تعنى بالعلوم الإسلامية من كلام وغيره يستدعي ان يكون هناك مستوى من مستويات الإبداع المعرفي والمنهجي الذي يبرر ان يوصف بكونه يشكل مدرسة او نواة لإنطلاقة مدرسة في المعرفية الإسلامية؛ فهل هذا الأمر كان موجوداً لدى السلطة الأموية؟

في مقام الجواب يمكن القول ان ما نقصده بالمدرسة الثقافية للسلطة هو ان هذه السلطة تتبنى اكثر من رؤية في الكلام والدين والسياسة..تشكل في مجموعها منظومتها المعرفية؛ فهل كانت تتبنى منظومة معرفية محددة أم لا ؟ بمعزل عن ان تكون هذه الرؤى والمفاهيم مبدعة من العقل المعرفي للسلطة ـ إذا كانت تمتلكه ـ ام كانت رؤى ومفاهيم التقاطية قد اخذتها من أكثر من بيئة معرفية حتى لو كانت غريبة عن جغرافية المعرفة الإسلامية؛ فإذا كانت السلطة الأموية قد التقطت بعض المفاهيم وعملت على انتاج مفاهيم اخرى، واختلقت مجموعة من النصوص الدينية فإنما ارادت بذلك تكوين تلك المنظومة المعرفية الدينية التي تسمح بالتأسيس لخطاب معرفي ديني يخدم مصالحها السياسية ؛ إن ما نقصده بالمدرسة الثقافية للسلطة هو تلك المنظومة من العقائد والمعارف والمفاهيم، بلحاظ كونها مادة مصنوعة وهادفة، أي مصنوعة بعناية طبق ضوابط تلك السلطة وغاياتها، وهادفة بمعنى انها تستهدف مخاطبة الوعي الإسلامي، اي انها ينظر إليها بلحاظ كونها منظومة موجهة إلى ذلك الوعي من اجل بنائه وتشكيله. إن الحرص الشديد للسلطة على صياغة الخطاب التبريري الديني لسلوكهاالسياسي من جهة وتلك المساحة الكبيرة من المعرفية الدينية التي لها تداعياتها ونتائجها المعرفية السياسية من

جهة أخرى قد اضطرا السلطة على العمل الجاد لتكوين تلك المنظومة المعرفية، وهو ما نعنيه بالمدرسة الثقافية او المشروع الثقافي للسلطة.

والنتيجة ان السلطة ادراكاً منها لتلك العلاقة الوثيقة بين الديني المعرفي والسياسي سواء من ناحية المشروعية السياسية او من ناحية موقف المجتمع الإسلامي من السلطة نفسها؛ فإن مصالحها السياسية تقتضي ان تجعل من المعرفية الدينية اداة اساسية تستخدمها لخدمة مشروعها السلطوي وقد تمثل هذا الاستخدام من جهتين: الأولى ضرب المدرسة الثقافية للخصم ـ أهل البيت عليهم السلام ـ والثانية انشاء مدرستهم الثقافية التي سيكون دورها تقديم المادة المعرفية التي تضمن ولاء الأمة للسلطة وتحرم الخروج عليها ومقاومتها؛ وسوف نبحث في الجهتين:

١ ـ تحطيم المدرسة المعرفية والفكرية لأهل البيت عليهم السلام:

لقد ادرك معاوية المكانة المعنوية والعلمية لأهل البيت عليهم السلام ودورهم المعرفي ولاحظ تلك المحبة والتقدير اللذين ينظر من خلالهما المجتمع الإسلامي إليهم، تلك المحبة التي جعلها الله تعالى بمثابة الأجر الذي يجب ان تدفعه الأمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خلال مودتها لأهل بيته فقال عزّ من قائل.

﴿قل لا اسألكم عليه اجراً إلا المودة في القربى﴾ (الشورى، ٢٣).

وذلك الدور الذي اعطاهم اياه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث جعلهم بمعية القرآن المرجعية العلمية والدينية والفكرية للأمة وأكد على ضرورة التمسك بهما معاً وان التمسك بأحدهما دون الآخر لا يوصل إلى المطلوب، فقال صلوات الله وسلامه عليه في حديث الثقلين:

«تركت فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وعترتي اهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[1].

إن معاوية قد ادرك كل ذلك وقد كان يعلم ان هذه المكانة الدينية والمعنوية هي المشكلة الرئيسية التي يواجهها المشروع الأموي، ولذا لا بد من تحطيم هذه المكانة بأية وسيلة بغية حفاظ السلطة على مصالحها الخاصة فكان ان جعلت أبواقها الاعلامية هدفاً لها بشكل خاص الرمز الأساسي لمدرسة الإمامة الإمام علي عليه السلام، وإن كانت قد وزعت جهودها على أهل البيت عليهم السلام بشكل عام وقد تمثل سعي السلطة لهدفها من خلال هذه الأساليب:

أ ـ اختلاق الأحاديث لذم علي عليه السلام:

امام ذلك الحجم الكبير من الروايات التي ذكرت عن رسول الله صلى الله عليه وآله في مدح علي عليه السلام وتبيين فضائله كانت الوسيلة الفضلى اختلاق مجموعة مقابلة من الأحاديث في ذم امير المؤمنين عليه السلام ولذا عمل الرواة المأجورون على انتاج مجموعة من الأحاديث التي ترضي تلك السلطة وتستدر اموالها نذكر بعض النماذج منها:

١ ـ روى ابو هريرة ان علياً عليه السلام خطب ابنة ابي جهل في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله فأسخطه فخطب صلى الله عليه وآله على المنبر وقال: لاها الله لا تجتمع ابنة ولي الله وابنة عدو الله ابي جهل إن فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها، فإن كان علي يريد ابنة ابي جهل

---

(١) مستدرك الحاكم، ج ٣، ص ١٤٨.

فليفارق ابنتي وليفعل ما يريد»[1].

٢ ـ روى الأعمش: لما قدم ابو هريرة العراق مع معاوية عام الجماعة جاء إلى مسجد الكوفة فلما رأى كثر من استقبله من الناس جثا على ركبتيه ثم ضرب صلعته مراراً وقال: يا اهل العراق اتزعمون اني اكذب على الله ورسوله واحرق نفسي بالنار؟ والله لقد سمعت رسول الله يقول: إن لكل نبي حرماً وإن المدينة حرمي، فمن احدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين واشهد بالله ان علياً احدث فيها؛ فلما بلغ معاوية قوله أجازه وأكرمه وولاه إمارة المدينة[2].

إن محاولة النيل من مكانة الإمام علي عليه السلام تظهر هنا من خلال جعله مصداقاً لهذا الحديث وبالتالي محلاً للعن، ولا شك ان معاوية الذي كان شديد الحرص على أي تبرير ديني لفعله العدائي للامام علي عليه السلام قد وجد في هذا الحديث غنيمة كبرى لا تقدر بثمن ومن هنا كان من الطبيعي ان يكافىء ابا هريرة بتوليته امارة المدينة.

وينقل الشيخ محمد جواد مغنية عن ابن ابي الحديد لدى حديثه عن بسر بن ارطأة الذي بعثه معاوية للإغارة على مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: كان بسر بن ارطأة قاسي القلب فظاً سفاكاً للدماء، لا رأفة عنده ولا رحمة.. وقد جهزه معاوية في ثلاثة آلاف، وقال له: سر حتى تمر المدينة، فاطرد الناس، واخف من مررت به، وانهب اموال كل من احصيت له مالاً

---

(١) الاجتهاد في مقابل النص، ص ٣٦٩(عن شرح النهج).

(٢) م ن.

ممن لم يكن دخل في طاعتنا، فإذا دخلت المدينة فأرهم انك تريد انفسهم، واخبرهم انه لا براءة لهم عندك ولا عذر.

يقول الشيخ مغنية رحمه الله: «قبل ان يغادر بسر مدينة الرسول استخلف على اهلها ابا هريرة واوصاهم بطاعته، وابو هريرة هذا الذي نص عليه بسر بالخلافة من بعده رأى وشاهد البدع والأحداث التي أحدثها بسر في مدينة الرسول الأعظم، وهو بالذات الذي وثقه اصحاب الصحاح ورووا عنه الكثير، وقد يكون السبب لتوثيقه وتصحيح حديثه روايته عن نبي الرحمة: «ان لكل نبي حرماً وإن حرمي بالمدينة فمن احدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين واشهد ان علياً احدث فيها» وتاريخ رواية هذا الإفتراء متأخر عن غزوة بسر للمدينة واستخلافه ابا هريرة بعده»[1].

٣ ـ زعم عروة بن الزبير ان عائشة حدثته فقالت: كنت عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأقبل العباس وعلي فقال: يا عائشة إن سرك ان تنظري إلى رجلين من اهل النار فانظري إلى هذين قد طلعا، فنظرت فإذا العباس وعلي بن أبي طالب[2].

وعروة هذا «كان من المشهورين بالبغض والعداء لأمير المؤمنين عليه السلام وقد وصفه اخص تلامذته به ـ وهو الزهري ـ بوضع الحديث للنيل من علي عليه السلام»[3].

قال مَعمَر: كان عند الزهري حديثان عن عروة عن عائشة في

---

(١) الشيعة والحاكمون، ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٢) الإمام شرف الدين، النص والاجتهاد، ص٣٦٨ (عن شرح النهج لإبن ابي الحديد).

(٣) علي الميلاني، خطبة علي ابنة ابي جهل، ص٣٧.

علي عليه السلام، فسألته عنهما يوماً فقال: ما تصنع بهما وبحديثهما؟ الله اعلم بهما! إني لأتهمهما في بني هاشم[1].

والحديث الأول هو بحسب رواية الزهري: ان عروة بن الزبير حدثه فقال: حدثتني عائشة قالت: كنت عند رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ اقبل العباس وعلي، فقال لي صلى الله عليه وآله: يا عائشة إن هذين يموتان على غير ملتي. او قال على غير ديني[2].

٤ ـ اما عمرو بن العاص فيقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إن آل ابي طالب ليسوا لي بأولياء انما ولي الله وصالح المؤمنين[3].

وحتى نتعرف قليلاً على عمرو بن العاص ننقل ما ذكره الشيخ مغنية عن كتاب ربيع الأبرار للزمخشري حيث يقول: «ان النابغة ام عمرو بن العاص كانت بغياً فوقع عليها ابو لهب وامية بن خلف وهشام بن المغيرة وابو سفيان بن حرب والعاص بن وائل، فأتت بعمرو وادعاه الأربعة فقالت امه هو من العاص ولما قيل لها: لماذا اخترت العاص؟ قالت: كان ينفق علي وعلى اولادي أكثر منهم، وكان عمرو اشبه بأبي سفيان. وقد اتفق المفسرون على ان العاص قال: اني لأشنأ محمد الأبتر، فأنزل الله فيه «ان شانئك هو الأبتر».

يقول الشيخ مغنية: كان عمرو بن العاص من الذين عادوا النبي وآذوه، وكادوا له وكذبوه، وقاتله مع جيوش الشرك وهجاه

---

(١) م .ن.

(٢) الإمام شرف الدين النص والاجتهاد، ص٣٦٨.

(٣) م ن.

بسبعين بيتاً من الشعر فقال رسول الله: اللهم اني لا اقول الشعر ولا ينبغي لي اللهم العنه بكل حرف الف لعنة... وذهب إلى النجاشي ليأتي بالمسلمين إلى مكة ويعذبهم المشركون على اسلامهم واتباعهم دين الله ورسوله وحرّض على قتل عثمان، ثم انتحل دمه مع من إنتحل»[١]

ب ـ شتم الإمام علي عليه السلام وسبه:

يروى الطبري ان معاوية لما استعمل المغيرة بن شعبة على الكوفة سنة إحدى واربعين واقره عليها دعاه وقال له: قد اردت ايصاءك بأشياء كثيرة انا تاركها اعتماداً على بصرك، ولست تاركاً ايصاءك بخصلة: لا تترك شتم علي وذمه والترحم على عثمان والاستغفار له»[٢].

وقد قام معاوية بسب علي بنفسه وكتب إلى البلدان يأمر ولاته وعماله بسب علي فقامت الخطباء في كل مكان وعلى كل المنابر يسبون علياً ويبرأون منه ويقعون فيه وفي اهل بيته، وقد جهد معاوية ليجعل من سب الإمام سنة متبعة لدى الأمة[٣]، وقد أراد من خلال ذلك ايجاد الفرقة بينهم وبين الأمة سعياً منه لإبعادهم عن اية قدرة على التأثير في مجريات الأمور على المستويات الدينية والإجتماعية والسياسية حتى يبقى الوحيد الذي يؤثر في مسرح الأحداث وصناعة المستقبل.

---

(١) الشيعة والحاكمون، ص٥٣.

(٢) تاريخ الطبري، حوادث سنة ٥١ هـ.

(٣) الشيعة والحاكمون، ص ٧١، (عن شرح النهج ابن ابي الحديد).

ولذا عندما يطرح على معاوية هذا السؤال: لقد بلغت ما أملت، فلو كففت عن سب علي؟ فبماذا اجاب؟ «لا حتى يربو عليه الصغير ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكر فضلاً»[1].

إن هذا الجواب يفصح عن الهدف الحقيقي لمعاوية انه يريد للأمة ان تبتعد عن اهل البيت عليهم السلام على كافة المستويات الشعورية والتشريعية والاجتماعية... لأن السب والشتم موقف ليس فقط من علي عليه السلام بل مما يمثله علي عليه السلام من عقيدة ونهج لم يكونا محل تقدير واحترام من معاوية وعماله.

وقد عمل الإمام الحسن عليه السلام على مواجهة هذا العمل المشين فشرط على معاوية في وثيقة الصلح ألا يشتم أباه علياً فلم يجبه إلى ذلك، فطلب عندها الحسن عليه السلام ألا يسمعه شتم أبيه لكن معاوية لم يفِ ببنود الصلح بل شتم علياً والحسن على منبر الكوفة في حضور سيدي شباب أهل الجنة، وهذا ما حدا بالحسن عليه السلام إلى الرد عليه وفضحه امام الملأ.

يقول الشيخ المفيد في كتابه الإرشاد:

«لما استتمت الهدنة على ذلك ـ اي على الشروط التي اشترطها الحسن عليه السلام وهي ترك سب امير المؤمنين عليه السلام والعدول عن القنوت عليه في الصلاة وغير ذلك ـ سار معاوية حتى نزل بالنخيلة وكان ذلك يوم جمعة فصلى بالناس ضحى النهار، فخطبهم وقال في خطبته:

إني والله ما قاتلتكم لتصلّوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا،

---

(١) م ن ، ص٣٦٥ (عن شرح النهج).

انكم لتفعلون ذلك، ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد اعطاني الله ذلك وانتم له كارهون، ألا وإني كنت منّيت الحسن واعطيته اشياء، وجميعها تحت قدمي، لا أفي بشيء منها له.

ثم سار حتى دخل الكوفة فأقام بها اياماً، فلما استتمت البيعة له من اهلها صعد المنبر فخطب الناس وذكر امير المؤمنين عليه السلام فنال منه ونال من الحسن وكان الحسن والحسين صلوات الله عليهما حاضرين، فقام الحسين ليردّ عليه فأخذ بيده الحسن فأجلسه ثم قام فقال:

«ايها الذاكر علياً أنا الحسن وابي علي، وانت معاوية وابوك صخر، وامي فاطمة وامك هندٍ، وجدي رسول الله وجدك حرب، وجدتي خديجة وجدتك قتيلة، فلعن الله اخملنا ذكراً والأمنا حسباً وشرنا قدماً واقدمنا كفراً ونفاقاً، فقال طوائف من اهل المسجد: آمين آمين»[1].

بل إن معاوية حاول حمل بعض الشخصيات على سب علي عليه السلام والبراءة منه فقد طلب ذلك من الأحنف بن قيس وعقيل بن ابي طالب فلم يفلح في مسعاه، وهو ما يدل على انه كان هدفاً مقصوداً ومصمماً عليه بجد واصرار من تلك السلطة.

ويروي عامر بن سعد بن أبي وقاص فيقول: امر (اي معاوية) سعدَ بن أبي وقاص فقال له: ما منعك ان تسب ابا تراب؟ اما ما ذكرت (القائل سعد) ثلاثاً قالهن له رسول الله فلن أسبه، لأن تكون لي واحدة منهن احب إلي من حمر النعم، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول له وقد

---

(١) ج ٢، ص ١٤ ـ ١٥.

خلفه في بعض مغازيه، فقال له: يا رسول الله خلفتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبوة بعدي، وسمعته يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله فتطاولنا لها فقال أدعو لي عليا، فأتي به أرمد فبصق في عينيه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه؛ ولما نزلت هذه الآية: ﴿**قل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم**..﴾ دعا رسول الله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال اللهم هؤلاء اهلي»[1].

جـ ـ لعن الإمام علي عليه السلام :

فضلاً عن السب والشتم فقد عمل معاوية على جعل لعن امير المؤمنين سنة تستن بها الأمة، وقد لعن الإمامَ علي عليه السلام في قنوط الصلاة وعلى المنابر في كل عيد وجمعة جاعلاً اللعن جزءاً من خطبة الجمعة والعيدين وامر الخطباء بذلك ليتحول اللعن إلى سنة يستن بها المسلمون، بل تحولت قضية اللعن إلى مبرر تستسيغ معه السلطة قتل المسلمين وصحابة رسول الله ﷺ الذين رفضوا هذه البدعة وقاوموا هذه السياسة ادراكاً منهم للمخاطر التي تترتب عليها[2].

نعم ولقد استشهد بسبب هذه السياسة عدة من اصحاب علي عليه السلام الذين رفضوا ان يُلعن الإمام على المنابر ومن هؤلاء حجر بن عدي ورشيد الهجري وصيفي بن فسيل.. وكان حجر بن عدي قد وفد على النبي ﷺ وشهد معه حروباً عديدة، ولكن لما انكر على زياد بن أبيه لعن الإمام علي عليه السلام بعث به وبجماعته إلى الشام فأمر معاوية بقتل من لم

---

(١) الإجتهاد في مقابل النص، ص ٣٦٤.

(٢) الاجتهاد في مقابل النص، ص ٣٦٣.

يتبرأ من الإمام علي عليه السلام وقتل حجر على ذلك[1]، اما رشيد الهجري فقد عرض عليه زياد البراءة واللعن فأبى ان يجيبه إلى طلبه فقطع يديه ورجليه ولسانه وصلبه خنقاً في عنقه[2].

اما صيفي بن فسيل فإنه جيء به إلى زياد، فقال له: يا عدو الله ما تقول في ابي تراب؟

قال صيفي: ما اعرف ابا تراب.

قال زياد: ما اعرفك به؟

قال: ما اعرفه.

قال زياد: اما تعرف علي بن أبي طالب؟

قال: بلى

قال زياد: فذاك ابو تراب.

قال: كلا ذاك ابو الحسن والحسين.

قال زياد لجلاوزته: عليّ بالعصا فأتي بها، فالتفت إلى صيفي، وقال: ما قولك؟

قال: احسن قول انا قائله في عبد من عباد الله المؤمنين.

---

(١) معالم المدرستين: ج٢، ص ٥٠.
(٢) الشيعة والحاكمون، ص ٨١.

فقال زياد: اضربوه حتى يلصق بالأرض، فضربوه حتى لزم الأرض، وعندها قال له زياد: ما تقول في علي؟

قال: والله لو شرحتني بالموسى والمدى ما قلت إلا ما سمعت مني.

قال زياد: لتلعننه.. او لأضربن عنقك.

قال: اذن والله لتضربها قبل ذلك[1].

٢ ـ المدرسة الفكرية للسلطة الأموية:

قلنا ان السلطة ـ وبسبب اقتران السياسي بالديني ـ قد عنت بانتاج بعض المفاهيم والأفكار الدينية وبتبني مفاهيم وافكار اخرى من اجل ان تكون بمثابة مادة تستخدم في الخطاب السياسي التبريري وفي الخطاب الثقافي التخريبي للمفاهيم الدينية ولتراث رسول الله ﷺ.

إذا عدنا إلى تلك المادة المعرفية التي كانت تعتمدها السلطة الأموية والتي نقلها إلينا التاريخ، وحاولنا تحليل تلك المادة من اجل الوقوف عند اهم مكوناتها، فإننا نرصد مجموعة من العناصر المعرفية التي تشكل مجتمعة الخطاب الثقافي للسلطة، اما اهم تلك العناصر والمكونات فهي ما يلي:

---

(١) م ن، ص ٧٨.

١ ـ حرمة الخروج على الحاكم الظالم والجماعة الضالة:

ان السلطة الأموية كان يعنيها كثيراً ان يترسخ هذا المفهوم في الوعي الديني للمجتمع الإسلامي، لأنه يعود بفائدة مباشرة وكبيرة على تلك السلطة إذ انه يخدّر المجتمع ويكبل يديه ليمنعه من التحرك الثوري والعمل التغييري للواقع الفاسد والمنحرف.

إن اهم ما يخدم السلطة الظالمة هو هذا المفهوم لأنه ينجز لها ما قد تعجز عن تحقيقه بالقوة والغلبة والقهر ،ولذا فإنها تحاول باسم الدين ان تحرم الخروج عليها ومقاومة الفساد والأخذ بزمام الإصلاح، مع ان الإصلاح ـ كما بينا ـ هو هدف الأديان ومشروع الأنبياء ،ولذلك نجد ان عبارات من قبيل الخروج على الإمام ومعصيته وشق عصا المسلمين ومفارقة الجماعة قد اصبحت محل عناية فائقة من قبل رموز السلطة في محاججاتهم السياسية مع المعارضة وقوى الإصلاح وقد ذكرنا سابقاً نماذج من تلك المحاججات.

إننا نجد ان التراث الديني يزخر بمجموعة من الأحاديث التي نقلها ائمة اهل البيت عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله تدعو إلى مقاومة الظلم وإزالة الفساد والتي ذكر بعضها سيد الشهداء عليه السلام حيث قال: «ايها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله **قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله ناكثاً عهده مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله ان يدخله مدخله...**»[١].

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**افضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**»[٢].

---

(١) تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٣٠٧.

(٢) وسائل الشيعة، كتاب الأمر بالمعروف...، الباب الثاني، ج١.

فضلاً عما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى:

﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾[1].

ويقول تعالى: **﴿اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله﴾**[2].

إن هذه النصوص الدينية وغيرها كانت تمثل عقبة كأداء امام تلك السياسات الظالمة للسلطة وكانت تمثل مشكلة كبيرة لا يمكن تجاوزها إلا من خلال الدين وباسم الدين.

إن مضمون بعض الأحاديث قد كان محل عناية من الجهاز الثقافي للسلطة من قبيل هذا الحديث الذي ذكر عن لسان ام سلمة عن النبيﷺ:

«قال: إنه يستعمل عليكم امراء فتعرفون وتنكرون فمن كره فقد برىء ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضي وتابع؛ قالوا يا رسول اللهﷺ ألا نقاتلهم؟ قال: لا ما صلوا»[3].

وعن حذيفة بن اليمان عن رسول اللهﷺ انه قال:

«يكون بعدي ائمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان انس؛ قلت: كيف أصنع يا رسول اللهﷺ إن ادركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع الأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك، فاسمع واطع»[4].

---

(١) هود، ١١٣.

(٢) الحج، ٣٩.

(٣) لو بايع الحسين، ص٥٣ (عن الجامع لأحكام القرآن للقرطبي).

(٤) م ن، ص ٥٥ ـ ٥٦ (عن صحيح مسلم).

بل إن بعض فتاوى الفقهاء قد صبّت في الخانة نفسها فهذا الحسن البصري يقول: «تجب طاعة ملوك بني أمية وإن جاروا، وإن ظلموا والله لما يصلح بهم أكثر مما يفسدون»[١].

وفي عبارة اخرى: «لا يستقيم الدين إلا بهم وإن جاروا وإن ظلموا والله لما يصلح بهم اكثر مما يفسدون»[٢].

مع ان الفقيه البصري نفسه عندما يتحدث عن السلطة الأموية وتابعيها من اهل الشام يقول: «.. قبحهم الله وبرحهم! أليس هم الذين احلّوا حرم رسول الله ﷺ يقتلون اهله ثلاثة أيام وثلاث ليال! قد أباحوهم لأنباطهم وأقباطهم، يحملون الحرائر ذوات الدين! لا يتناهون عن انتهاك حرمة! ثم خرجوا إلى بيت الله الحرام، فهدموا الكعبة وأوقدوا النيران بين احجارها واستارها، عليهم لعنة الله وسوء الدار»[٣].

إن ذاك المفهوم الذي يتبناه الحسن البصري ويفتي به هو ما نجده عند شمر بن ذي الجوشن قاتل ابن بنت رسول الله ﷺ إذ انه كان يدعو الله تعالى في المسجد ويقول: «اللهم إنك شريف تحب الشرف، وإنك تعلم أني شريف فاغفر لي؛ قلت[٤] كيف يغفر الله لك، وقد اعنت على قتل ابن رسول الله؟ قال: ويحك فكيف نصنع؟ إن أمراءنا هؤلاء أمرونا بأمر فلم نخالفهم، ولو خالفناهم كنّا شراً من هذه الحمر الشقاة»[٥].

إن السلطة الأموية في صناعتها المعرفية لم تستفد من شيء

---

(١) م ن، ص ١٠٠ (عن الحكومة في الإسلام).
(٢) ريشهري محمد، رهبري در اسلام، ص ١٤٨ (عن المذاهب الإسلامية، ص ٨٩).
(٣) لو بايع الحسين، ص ٩٩ ـ ١٠٠ (عن تاريخ الطبري).
(٤) القائل هو الراوي للخبر .
(٥) تاريخ ابن عساكر ج ٦، ص ٣٣٨، وميزان الإعتدال للذهبي، ج ١، ص ٤٤٩.

كاستفادتها من هذا الحشد من المفاهيم الذي كان له اثر بالغ في تشكيل الوعي الديني ـ السياسي للمجتمع الإسلامي والذي استطاع ان يروّض بعض فئات ذلك المجتمع، وهو بالحد الأدنى قد استطاع ان يحيّد بعض القوى عن الإنخراط في مشروع مواجهة الفساد الأموي ويفقد هذا المشروع الكثير من قوته ،وهو ما ادى إلى ان تنعم السلطة الأموية بهدوء أكثر، منحها الجرأة على أن تزداد غياً وتفرط في ظلمها وتتجرأ على ارتكاب اشنع وافظع المحرمات؛ لماذا؟ لأنها مهما فعلت يحرم الخروج عليها ولأن في مقاومتها سخط الله وفي القعود عن قتالها رضاه، فهي تأمن ردة الفعل من هذا المجتمع الذي تتحرك فيه، لإنه مخدّر بمفاهيم تنسب إلى الدين وهي ابعد ما تكون عنه، لكنه مع ذلك استطاعت تلك المفاهيم ان تفعل فعلها وان تجني مكاسب عديدة لصالح السلطة ومن أجل ذلك قال بعض الباحثين انه لولا لسان الحسن البصري وسيف الحجاج لزالت دولة المروانيين[1] (نسبة إلى مروان بن الحكم خليفة يزيد بن معاوية).

إن السلطة الأموية كان يصعب عليها ان تتستر امام استهتارها بالقيم وانتهاكها للدين وممارستها للظلم؛ إن هذه الحقيقة لم تكن لتخفى على ابناء المجتمع الإسلامي وكان يصعب عليها ان تقنع ذلك المجتمع بدينية تلك الممارسات والأعمال؛ فكان من الأسهل عليها ان تقول: صحيح هذه الأعمال لا يقبلها الدين، لكن يحرم عليكم الخروج علينا ومقاومتنا ويجب عليكم طاعتنا وليس من الصحيح دينياً نقض بيعتنا وإلا كنتم شراً من هذه الحمر الشقاة.

---

(١) رهبري در اسلام، ص ١٤٨، (عن كتاب «مع الله» لمحمد الغزالي).

إن شمراً كان واحداً من تلاميذ تلك المدرسة الذين تخرجوا منها بامتياز وكان شخصاً وفياً لها ولعب دوراً كبيراً في حدوث واقعة كربلاء وقتل الحسين عليه السلام ، لأنه تحرم مخالفة امراء الجور والظلم.

ومن هنا نستطيع ان نطل على ذلك الأثر الأخطر لذاك الحشد من المفاهيم وهو انه في الوقت الذي اخرج بعض القوى من معادلة الصراع واضعف الجبهة المواجهة للسلطة الأموية، فإنه استطاع ان يمنح جبهة السلطة قوة اكثر من خلال انضمام عناصر وتيارات متعددة إليها تحت عنوان وجوب طاعة الحاكم حتى لو كان ظالماً وحرمة نقض بيعته حتى لو كان ظالماً، ومعنى الوفاء بالبيعة هو ايضاً لزوم طاعته والإنقياد له.

وهنا بعد ان تحدثنا عن ذاك الحشد من المفاهيم الذي كان له تلك التداعيات الخطيرة على مستوى تشكيل الوعي الديني ـ السياسي للمجتمع الإسلامي من المناسب ان نبين مفصلاً تلك المفاهيم لنعرف العناصر المشكلة لذلك الحشد:

١ ـ حرمة الخروج على الحاكم الظالم: وقد تحدثنا عنه تفصيلاً وذكرنا شواهد عديدة على استخدام السلطة له التي عنت به كثيراً وجلب لها الكثير من المكاسب.

٢ ـ وجوب طاعة الحاكم الظالم: وقدكان يمثل هدفاً أرقى لتلك السلطة من جهة أن اقصى ما يوصل إليه تحريم الخروج على الحاكم هو تحييد بعض العناصر من الجبهة المناوئة للسلطة ،لكن وجوب الطاعة يقود إلى جعل المجتمع اداة سهلة توظفها السلطة لبلوغ غاياتها ومآربها.

٣ ـ حرمة نقض البيعة للحاكم الظالم: إن البيعة بما هي عهد على الطاعة فإنها تعني في المقام وجوب طاعة الحاكم ولو كان ظالماً ،لكن هنا لا بما هو حاكم بل بما هو مبايَع، اي بما هو محل لفعل تعهدٍ بطاعته ونصرته والإنقياد له.

٤ ـ حرمة الخروج على الجماعة وشق عصا المسلمين: إن السلطة قد اعطت نوع قدسية لمفهوم الجماعة وبالتالي عملت على توظيفه في مواجهة المشروع المعارض لها؛ والمقصود الواقعي بالجماعة هنا جماعة السلطة إذ ان المشروع المناوىء للسلطة يملك جماعته لكنها ليست الجماعة المقصودة في اللغة السياسية للسلطة، وقد اشرنا إلى موارد عديدة لاستخدام هذا المفهوم ونضيف هنا ما قاله معاوية لعبد الله بن عمر عندما سأله عن سبب تنصيب يزيد خليفة: «اني احذرك ان تشق عصا المسلمين وتسعى في تفريق ملئهم وان تسفك دماءهم..»[1].

٢ ـ رفع المكانة المعنوية والعلمية لرموز مدرسة الخلافة:

في الوقت الذي سعت السلطة الأموية لتحطيم المكانة العلمية والمعنوية لأهل البيت عليهم السلام فإنها سعت في المقابل إلى رفع المكانة العلمية والمعنوية لرموز مدرسة الخلافة لما كانت تراه من انها تشكل نوع امتداد لدولة الخلافة على المستوى السياسي والمعرفي، ولذا فإن القوة الدينية والسياسية لذاك التاريخ الذي ترى انتماءها إليه واستمراره فيها سوف يعزز من المكانة الدينية والسياسية لهذه السلطة في مقابل مدرسة الإمامة ونهجها السياسي.

---

(١) ابن قتيبة الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٢١٠.

كتب معاوية إلى عماله ان «انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه واهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم واكتبوا إليّ بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم ابيه وعشيرته، ففعلوا ذلك حتى اكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعث إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء احد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة او منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه فلبثوا بذلك حيناً، ثم كتب إلى عماله: إن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين..»[1].

وعليه فإن معاوية عمل على دفع بعض الرواة للإكثار من الرواية في فضائل الصحابة ورموز مدرسة الخلافة لإنه كان يدرك ذلك الخلاف السياسي والإختلاف المعرفي بين مدرسة الإمامة ومدرسة الخلافة، فأراد ان يستغل ذلك الخلاف وان يستفيد من ذاك الإختلاف.

إن معاوية قد جعل من المطالبة بدم عثمان مطية للوصول إلى الخلافة التي كان الأمويون يدعون انها من حقوقهم باعتبار ان هذه الخلافة قد كانت في عثمان وانه قتل مظلوماً وهم ورثته فيجب ان تنتقل إليهم لإنهم قرابته ولحمته، ولذا سعت السلطة الأموية من اجل ان تعطي هالة دينية مميزة لرموز مدرسة الخلافة عامة وللخليفة الثالث خاصة لتضيف إلى

---

(١) معالم المدرسين، ج ٢، ص ٥٥ (عن شرح النهج لإبن أبي الحديد).

ذلك ادعاءها وراثة الخلافة من الخليفة عثمان لما يمكن ان يجنيه ذلك من مشروعية سياسية ومن تبرير لخروجهم عن السلطة الشرعية والخلافة النبوية المتمثلة آنذاك بالإمام علي عليه السلام[1].

٣ ـ نظرية عدالة الصحابة:

اشرنا سابقاً إلى ان السلطة الأموية كانت تسعى إلى اضفاء المشروعية الدينية على كيانها باعتبار ان هذه المشروعية تستدعي المشروعية السياسية وقد حاولت الإستفادة من بعض المفاهيم كمفهوم الصحابي لما يمكن أن يساهم به في قضية المشروعية .

وعليه فقد عمل معاوية على تعويم مفهوم الصحابي وإعطائه بعداً دينياً وتقديمه بهالة من القدسية ليمتلك قدرته على التأثير في نفوس المسلمين ووعيهم، لقد اراد معاوية ان يعطي سلطة دينية لهذا المفهوم، لأنه لم يكن يمتلك سوى هذا السلاح من المشروعية الدينية ـ كصفة يمكن ان يمنحها نفسه على مستوى علاقته بشخص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ لقد ادرك معاوية كل ذلك السجال الديني ـ السياسي الذي حصل في العقود اللاحقة ولا شك انه قد اخذ منه الدروس ،إن درس المشروعية الدينية ـ السياسية لم يكن الدرس الذي يقبل ان تتهاون فيه السلطة، ولذا فإنها عندما فتشت في رحل المشروعية فإنها لم تجد ـ في الأوصاف التي تنطبق على معاوية ـ إلا فكرة الصحابي كسلاح يمكن ان يستخدم في إعطاء صبغة دينية لسلطانها وقوة لبيانها وتأثيراً في الخطاب الموجه للمجتمع الإسلامي ولذا كان فيما كتبه معاوية إلى عماله:

---

(١) الأمويون والخلافة، ص ١٣.

«.. إذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خبراً يرويه احد من المسلمين في ابي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا احب إلي وأقر لعيني، وأدحض لحجة ابي تراب وشيعته..»[1].

لقد اراد معاوية إذن ان يشهر فضائل الصحابي وألا يترك رواية تتحدث عن فضل الإمام علي عليه السلام ومكانته وإلا ويريد في مقابلها رواية تتحدث عن فضيلة الصحابي ومكانته، لماذا؟ لإنه ـ في تعبيره ـ ادحض لحجة ابي تراب وشيعته ـ واية حجة هي هذه الحجة؟

لا يمكن فصل كتاب معاوية عن تلك المواجهة على مستوى المشروعية الدينية ـ السياسية بين المشروع الأموي ومدرسة الإمامة، بل يعد هذا الكتاب احد مظاهر تلك المواجهة، إذ ان معاوية كان يدرك تلك المناقب الكثيرة التي نقلت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حق الإمام علي عليه السلام وتلك المآثر التي طفحت بها ألسنة الرواة، وهذا ما كان يسهم في تعميق ازمة المشروعية الدينية ـ السياسية التي كانت السلطة الأموية تسعى لتلافيها من خلال أكثر من وسيلة، ولذا فإن الوسيلة المثلى لمواجهة ذلك السيل الجارف من روايات الفضائل ـ التي كانت سلاحاً فتاكاً في السجال الديني السياسي ـ هو ان تعمل الماكنة الروائية للسلطة على انتاج نموذج الرواية المقابلة، فلا تبقى من رواية إلا ويكون في مقابلها رواية ناقضة لأن هذا «ادحض لحجة ابي تراب وشيعته»، اي ادحض لمبدأ المكانة العلمية والدينية لأهل البيت عليهم السلام ولنتائج هذا المبدأ على المستوى السياسي والاجتماعي، انها حرب الرواية التي ارادتها السلطة من اجل مواجهة مدرسة الإمامة.

---

(١) معالم المدرستين، ج٢، ص ٥٥ (عن شرح النهج لابن ابي الحديد).

٤ ـ الجبر:

إن ما يعنيه مفهوم الجبر هو ان الله تعالى يجبر الإنسان على أفعاله فيكون الإنسان مسلوب الإختيار، اي إنه يصبح في هذه الحالة بمثابة آلة تحركها القدرة الإلهية وتسيرها بطريقة لا يمتلك فيها القدرة على الاستجابة وعدمها بل يكون فاقداً لحريته واختياره.

إن ازمة المشروعية الدينية ـ السياسية كانت تستفز السلطة الأموية لتقديم المبررات النظرية التي تثبت حقهم في الخلافة وللتصدي لقيادة الدولة الإسلامية، يقول د. حسين عطوان: «يظهر ان الأمويين احسوا ان ما روجوه من انهم استوجبوا الخلافة بقرابتهم من عثمان لا يشكل لهم نظرية متميزة في الخلافة، لأن حقهم في الطلب بدمه لا يجعل لهم الحق في وراثة الخلافة عنه ولأن ما روجوه كان اضعف من ان يقابل نظريات الأحزاب الأخرى في الخلافة، مثل نظرية الشورى عند الخوارج والقدرية ومرجئة الجبرية، ونظرية وراثة الرسول عند الهاشميين من العلويين والعباسيين ولذلك مالوا إلى مذهب الجبر في الخلافة وعولوا عليه لإثبات حقهم فيها وتعلقوا به لتصحيح احتيازهم لها، فقد استقروا على ان الله اختارهم للخلافة وآتاهم الملك وانهم يحكمون بارادته ويتصرفون بمشيئته، واحاطوا خلافتهم بهالة من القداسة، واسبغوا على انفسهم كثيراً من الألقاب الدينية، إذ كان معاوية بن أبي سفيان في نظر انصار الأمويين خليفة الله في الأرض والأمين المأمون، وكان يزيد بن معاوية امام المسلمين..»[1].

لقد كانت السلطة الأموية تحتاج إلى ما تبرر به افعالها وسياساتها

---

(١) الأمويون والخلافة، ص ١٩.

التي تتنافى مع ادنى درجات الوعي الديني الذي كان يمتلكه المجتمع الإسلامي، ولذا فقد عمل معاوية على استخدام هذه العقيدة والترويج لها في محاولة منه لإسكات تلك الأصوات المعارضة لفعله ولسياسته وخصوصاً فيما يرتبط بتنصيب ولده يزيد خليفة على المسلمين، بل وفي ادعائه نفسه لخلافة المسلمين وإمامتهم، وقد نقل القاضي عبد الجبار المعتزلي عن الشيخ ابي علي الجبائي انه قال:

«إن اول من قال بالجبر واظهره معاوية، وإنه اظهر ان ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه، عذراً فيما يأتيه، ويوهم انه معيب، وان الله جعله إماماً وولاه الأمر، وفشا ذلك في ملوك بني امية»[1].

إن المشكلة الكبيرة التي كانت تواجه معاوية هي قضية تنصيب ولده يزيد خليفة على المسلمين إذ ان يزيد كان معروفاً بفسقه وفجوره ومجونه وكان من الصعب على المجتمع الإسلامي ان يقبل بخلافة يزيد، لذا كان على معاوية ان يحرّف في الدين من أجل ان يبرر تولية ابنه.

ينقل إلينا التاريخ ان معاوية قد قصد المدينة من اجل تهيئة الظروف المناسبة لولاية يزيد واخذ البيعة له، وقد التقى في سبيل ذلك بعائشة فكان مما قاله لها:

«. . إن امر يزيد قضاء من القضاء، وليس للعباد الخيرة من امرهم»[2].

وقد استخدم هذا الأسلوب ايضاً مع عبد الله بن عمر عندما سأله عن سبب توليته يزيد فقال: «. .اني احذرك ان تشق عصا المسلمين،

---

(١) السبحاني، الملل والنحل، ج ١، ص ٢٦١ (عن المغني).
(٢) م ن، ص ٢٤٠ (عن الإمامة والسياسة).

وتسعى في تفريق ملئهم وان تسفك دماءهم، وان امر يزيد قد كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة من أمرهم..»[1].

إن هذا الأسلوب التبريري ـ وايضاً التخريبي ـ الذي استخدمه معاوية يظهر انه قد اصبح مبدأً معمولاً به لدى كل او معظم رموز السلطة الأموية، اي ان معاوية قد رسّخ مبدأ الجبر وعمّمه، وهو بعمله هذا يكون قد فتح للسلطة الباب على مصراعيه من اجل ارتكاب افظع وأشنع الجرائم طالما ان الخطاب التبريري حاضر من اجل ان يرفع عن السلطة ورموزها كافة اشكال المسؤولية، باعتبار ان ما حصل انما هو من قضاء الله ولا محيص عنه، ولذا فإنه لو لم يكن هناك ارادة له من الله لما كان حصل ما حصل؛ إن هذه الشبهة الكلامية ـ السياسية كانت حاضرة ايضاً في ذلك الحوار الذي دار بين يزيد والإمام زين العابدين عليه السلام، ينقل الشيخ المفيد انه لما أدخل علي بن الحسين عليه السلام وعيال الحسين على يزيد قال له يزيد: يا بن حسين، ابوك قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما قد رأيت، فقال علي بن الحسين عليه السلام: **﴿ما اصاب من مصيبة في الأرض ولا في السماء إلا في كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير﴾**[2].

وكان الإمام زين العابدين قد واجه المنطق نفسه من عامل يزيد على الكوفة اعني به عبيد الله ابن زياد، اذ انه عُرض عليه علي بن الحسين عليهما السلام فقال له: من انت؟

فقال: انا علي بن الحسين.

فقال: أليس قد قتل الله علي بن الحسين؟

---

(١) م ن.

(٢) الإرشاد، ج ٢، ص ١٢٠.

فقال له عليعليه السلام: قد كان لي أخ يسمى علياً قتله الناس.

فقال له ابن زياد: بل الله قتله.

فقال علي بن الحسينعليه السلام: **﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾**[1].

ويذكر ايضاً الشيخ المفيد انه «لما وصل رأس الحسينعليه السلام.. جلس ابن زياد للناس في قصر الإمارة واذن للناس اذناً عاماً وامر باحضار الرأس فوضع بين يديه فجعل ينظر اليه ويبتسم وفي يده قضيب يضرب به ثناياه وكان إلى جانبه زيد بن أرقم صاحب رسول اللهصلى الله عليه وآله - وهو شيخ كبير - فلما رآه يضرب بالقضيب ثناياه قال له: ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين، فوالله الذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول اللهصلى الله عليه وآله عليهما مالا احصيه كثرة تقبلهما؛ ثم انتحب باكياً، فقال له ابن زياد: ابكى الله عينيك اتبكي لفتح الله والله لولا انك شيخ خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك، فنهض زيد ابن ارقم من بين يديه وصار إلى منزله»[2].

إنه بالنسبة إلى ابن زياد فتح الله وفعله وبالتالي لا ينبغي الإعتراض على فعله تعالى.

ويبدو هذا المنطق واضحاً في حوار ابن زياد مع السيدة زينبعليها السلام اذ انه توجه اليها قائلاً: «الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب احدوثتكم».

فقالت زينب: الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه محمدصلى الله عليه وآله وطهرنا من الرجس تطهيراً وإنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا والحمدلله.

فقال ابن زياد: كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟

---

(١) م ن، ص ١١٦.

(٢) م ن، ص ١١٤ - ١١٥.

قالت: «كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجون إليه وتختصمون عنده..»[1].

اما عمر بن سعد فإنه لما اعترض عليه عبد الله بن مطيع العدوي قائلاً: اخترت همدان والري على قتل ابن عمك؛ فإنه اجاب بقوله:

«كانت امور قضيت من السماء»[2].

إن السلطة الأموية ولتبرير كل افعالها التي لا تنسجم مع الدين ارادت ان تقدم إلى الرأي العام مادة معرفية سامة بلباس ديني من اجل ان ترفع عن نفسها مسؤولية ما يحصل لإنه قضاء من القضاء، وصنع الله به، وفتح الله، وفعل الله بأهل بيتك، وقتل الله علي بن الحسين، وامور قضيت من السماء، اما السلطة الأموية فإن ما كانت تفعله هو أنها فقط كانت تنفذ ارادة الله تعالى.

يقول احمد محمود صبحي في كتابه نظرية الإمامة: «إن معاوية لم يكن يدعم ملكه بالقوة فحسب ولكن بايديولوجية تمس العقيدة في الصميم، ولقد كان يعلن في الناس ان الخلافة بينه وبين علي عليه السلام قد احتكما فيها إلى الله فقضى الله له على علي وكذلك حين اراد ان يطلب البيعة لابنه يزيد من اهل الحجاز اعلن ان اختيار يزيد للخلافة كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة في امرهم، وهكذا كاد ان يستقر في اذهان المسلمين ان كل ما يأمر به الخليفة ـ حتى لو كانت طاعة الله في خلافه ـ فهو قضاء من الله قد قدر على العباد»[3].

---

(١) م ن، ص ١١٥.

(٢) طبقات ابن سعد، ج ٥، ص ١١٣.

(٣) السبحاني الملل والنحل، ج ١، ص ٢٤٠.

٥ ـ الإرجاء:

كنا نتحدث عن ان السلطة الأموية كانت تعمل على انتاج مجموعة مفاهيم تلبس لباس الديني، من اجل ان تخرق نسيج الوعي الديني للمجتمع الإسلامي في محاولة منها لتشكيل رؤية كلامية تسهم في تبرير مسلكها السياسي .

ومن تلك المفاهيم التي تبنتها السلطة الأموية وعملت على ترويجها مفهوم الإرجاء، هذا المفهوم الكلامي الذي يلغي اهمية العمل ولا يقيم له وزناً، لإن الإيمان انما هو معرفة بالقلب وتصديق باللسان والمعصية لا تضر الإيمان؛ ولعله لهذا السبب سُمّوا بالمرجئة اي لأنهم يؤخرون العمل عن الايمان فلا يجعلون العمل داخلاً في مفهوم الإيمان بل يجردون هذا المفهوم عن معنى العمل، فيكون الارجاء هنا بمعنى التأخير كما في قوله تعالى: ﴿**قالوا ارجه وأخاه**﴾[1].

أو لعل تلك التسمية ـ المرجئة ـ مأخوذة من الرجاء اي رجاء غفران الله مهما ارتكب من معاصي، لأنه ايضاً لا تضر مع الإيمان معصية، ويبدو هذا المعنى في ذاك الحوار الذي حصل بين عائشة ومعاوية إذ تقول له: «يا معاوية! قتلت حُجراً واصحابه العابدين المجتهدين! فقال معاوية: دعي هذا كيف أنا في الذي بيني وبينك في حوائجك؟ قالت: صالح، قال: فدعينا وإياهم حتى نلقى ربنا»[2].

أما ظهوره بهذا المعنى الذي يهمش العمل ويبرر المعصية فهو في

---

(١) الأعراف، ١١١.

(٢) صفحات من تاريخ كربلاء، ص ١٧٩ (عن الكامل في التاريخ).

زمن معاوية الذي ابرز عملاً وقولاً انه لا يضر مع الايمان معصية ولا ذنب، وبالتالي يمكن للحاكم ان يرتكب الجرائم ويفعل الفواحش ويقدم على الموبقات ومع ذلك فهو مؤمن لا يجوز الخروج عليه ولا مواجهته لأن كل ما يفعله من مخالفة للدين لا يضر في ايمانه شيئاً.

يقول ابن ابي الحديد في شرح النهج:

«اول من قال بالإرجاء المحض معاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص، كانا يزعمان انه لا يضر مع الإيمان معصية، ولذلك قال معاوية لمن قال له: حاربت من تعلم وارتكبت ما تعلم؟! فقال وثقت بقوله تعالى: ﴿**إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾»[1].

إن معاوية كان يدرك خطورة الأعمال التي يقوم بها على المستوى الديني وعدم مقبولية تلك الأعمال التي يقوم بها في الوعي الديني العام للمجتمع الإسلامي ،ولذا كان معنياً ـ والسلطة الأموية عامة ـ باستخدام سلاح الديني لمواجهة الديني، وليكون الديني في خدمة السياسي وقد عمل هذا المنطق التبريري على انتاج أكثر من وسيلة معرفية لإستخدامها حيث تقضي المصلحة السياسية ويعوزه التسويل السياسي، حتى لو كانت هذه الوسائل محكومة بالتناقض وعدم الإنسجام.

إن السلطة الأموية في الوقت الذي كانت تدرك ما يمكن ان تستجلبه تلك الصناعة المعرفية من فائدة سياسية آنية ،كانت تعي ايضاً حجم المخاطر والأضرار التي سوف تتركها على سلامة المعرفة الدينية والوعي الديني

---

(١) لو بايع الحسين، ص ٦٧. (عن شرح النهج لإبن ابي الحديد)

للمجتمع الإسلامي، لكنها آثرت ان تتجاوز الديني بل وتضحي به خدمة لمصالح دنيوية ومحدودة، إن لم نقل انها كانت تستهدف الديني نفسه وتسعى للقضاء عليه عداوة منها لمحمد واهله وتمسكاً منها بجاهليتها الجهلاء، كما يمكن ان يستفاد من نصوص تاريخية عديدة.

٦ ـ الأخذ بثقافة اهل الكتاب والترويج لها:

إن مدرسة السلطة الأموية قد اعتمدت في مصادرها المعرفية على بعض المصادر التي لا تنتمي إلى البيئة المعرفية الإسلامية في محاولة منها لتكوين تلك المنظومة المعرفية التي تنسجم واتجاهها السياسي، وهنا نجد أن بعض الرواة قد نقل عن بعض علماء اهل الكتاب الذين اظهروا الإسلام، ومعاوية نفسه كان قد روى عن تميم الداري الراهب النصراني وكعب احبار اليهود اللذين كانا قد اظهرا الإسلام، وفسح لهما بإفشاء الأحاديث الإسرائيلية بين المسلمين، والملفت ان تميم هذا قد انتقل من المدينة إلى الشام بعد مقتل عثمان وبقي في كنف معاوية حتى توفي سنة ٤٠ للهجرة، وكذلك كعب الأحبار فإنه لما ظهرت علامات الثورة على عثمان ترك المدينة وذهب إلى الشام ليعيش في رعاية معاوية مكرماً حتى وفاته سنة ٣٤هـ.

والقضية لم تكن فقط قضية هذين العالمين بل قضية وسيلة اعلامية تتألف منهما ومن غيرهما كانت تعمل على ادخال عنصر الثقافة الإسرائيلية في نسيج الوعي الديني للمجتمع الإسلامي، ولذلك فإن الإمام علي عليه السلام قام بطردهم من مساجد المسلمين اثناء فترة حكمه لمنع انتشار تلك الثقافة الدخيلة التي تهدد الوعي الديني الإسلامي بالتشويه والإنحراف؛ يقول السيد مرتضى العسكري:

«لم يقتصر نقل الإسرائيليات على هذين العالمين من علماء اهل الكتاب وتلاميذهما فحسب، بل قام به ثلة معهما، ومن بعدهما كذلك.. وأثّروا على الفكر الإسلامي بمدرسة الخلفاء اثراً عظيماً، ومن ثم دخلت الثقافة الإسرائيلية في الإسلام وصبغته في جانب منه بلونها، ومن هنا انتشر بمدرسة الخلفاء الإعتقاد بأن الله جسم وان الأنبياء تصدر منهم المعاصي والنظرة إلى المبدأ والمعاد إلى غيرها من أفكار اسرائيلية، وعظم نفوذ هؤلاء على العهد الأموي خاصة، وخاصة في سلطان معاوية، حيث اتخذ بطانة من النصارى امثال كاتبه سرجون وطبيبه ابن أثال وشاعره الأخطل من نصارى عصره، ومن المعلوم ان هؤلاء عندما شكلوا البلاط الأموي لم يتركوا افكارهم المسيحية واعرافهم خلفهم بل حملوها معهم إلى بلاط الخلافة الأموية، اضف إلى هذا ان عاصمة معاوية الشام كانت قبل ذلك عاصمة لنصارى الروم البيزنطيين وكانت ذات حضارة عريقة..

اما معاوية نفسه فكان قد نشأ في وسط اغلظ الجاهليات القبلية التي حاربت الإسلام واعرافه حتى اخضعها الإسلام بقوة السيف، نشأ فيها حتى صلب عوده وانتقل على كبر سنه من مكة بعد فتحها إلى المدينة ومن الجاهلية إلى الإسلام، ولم يمكث في المجتمع الإسلامي الناشىء إلا وقتاً قصيراً لا يكفي ليتطبع فيه بالطبع الإسلامي الجديد عليه ليستطيع ان يؤثر على ذلك المجتمع ذي الحضارة الرومية الذي امتدت حضارته إلى آماد بعيدة في الدهر، بل هو الذي تأثر به.

وكان معاوية يُبعد من ذلك المجتمع من كان يعترض سبيله من صحابة تطبعوا بالطابع الإسلامي الأصيل ،نظير أبي ذر وابي الدرداء وقرّاء اهل الكوفة.

كل تلكم كانت عوامل ادت إلى صبغ مدرسة الخلفاء منذ عصر معاوية بطابع ثقافة اهل الكتاب»[1].

٧ ـ عدم الاعتناء بالضوابط الدينية:

ان عدم الاعتناء بالضوابط الدينية وعدم الإلتزام بنص رسول الله ﷺ وبحرمته هو من القضايا التي تبدو بمستوى كبير من الوضوح في اداء السلطة الأموية ورموزها، ابتداء من قتلهم سبط النبي ﷺ إلى استباحة مدينة رسول الله ﷺ ثلاثة أيام الى هدم الكعبة وقتل الأبرياء وصحابة الرسول ﷺ فضلاً عن كل تلك الموارد التي ابرزناها والتي تشير الى ذاك العمل الدؤوب للسلطة من اجل تحريف الدين وقلب المفاهيم بما ينسجم ومصالحها.

وفضلاً عما ذكر سنشير هنا إلى اهم تلك الموارد التي ضربت فيها السلطة بالأحكام الدينية عرض الجدار وسعت وراء غايات آنية رغم ما يترتب عليها من نتائج سلبية على الوعي الديني لبعض الفئات الإجتماعية:

أ ـ **نقض صلح الإمام الحسن**: لقد صالح الإمام الحسن عليه السلام معاوية بن أبي سفيان بسبب تلك الظروف التي كانت سائدة في تلك الفترة وتلك المعطيات التي كانت متوفرة، والتي فرضت على الإمام الحسن عليه السلام خيار الصلح الذي تم عقده على أساس جملة من الشروط التي التزم بها معاوية وتعهد الوفاء بمضمونها، بل يروي بعض المؤرخين ان معاوية

---

(١) معالم المدرستين، ج ٢، ص ٥٣ ـ ٥٤.

ارسل الى الإمام صحيفة بيضاء مختومة بخاتمه ليشترط الإمام فيها ما يشاء، فاملى الإمام شروطه ومن ثم كتب معاوية جميع ذلك بخطه وختمه بخاتمه واعطى العهود الأكيدة وبذل الأيمان الغليظة واشهد على ذلك جميع رؤساء اهل الشام[1].

لكن الذي حصل انه سرعان ما نقض عهده ولم يف بوعده ولم يعمل بشرطه وقال قولته المشهورة: «اني كنت مّنيت الحسن واعطيته اشياء وجميعها تحت قدمي لا افي بشيء منها»[2].

ب ـ **الحاق زياد بأبي سفيان**: قام معاوية بالحاق زياد بابيه ابي سفيان بدعوى انه ارتكب الزنى في الجاهلية مع سمية التي كانت زوجة عبيد وكانت حجته شهادة ابي مريم الذي كان تاجر خمر؛ مع ان رسول الله ﷺ قال: «الولد للفراش وللعاهر الحجر» وقد كان عمل معاوية من اعمال الجاهلية، ولذا انكر عليه كافة الناس ذلك فلم يبال بل كان يغضب اذا لم يدع زياد الى ابيه فقال له بعض معاصريه:

اتـغـضـب ان يـقـال ابـوك عـف وتـرضـى ان يـقـال ابـوك زانـي[3]

اما هدف معاوية من وراء ذلك فهو أن يمتن العلاقة مع زياد من اجل ان يكون اداة اطوع في

---

(١) الإجتهاد في مقابل النص ص٣٧٠.

(٢) الإرشاد، ج٢، ص١٤.

(٣) الإجتهاد مقابل النص، ص ٣٥٣.

يده يستخدمها في ممارسة اعمال القتل والتعذيب والتنكيل التي كانت ترتكب بحق اتباع اهل البيت عليهم السلام ومواليهم.

ج ـ **شرب الخمور**: لم تكن رموز السلطة الأموية لتتورع عن تعاطي الخمور وقد كان فيما وصف به الإمام الحسين عليه السلام يزيد ان قال: «ويزيد بن معاوبة ،رجل فاسق معلن بالفسق وقاتل النفس المحترمة شارب الخمر . . . »[1].

وقد رُوى هذا الأمر بالنسبة إلى معاوية نفسه، كما ذكر ذلك احمد بن حنبل في مسنده عن عبد الله بن بريدة قال «دخلت انا وابي على معاوية فاجلسنا على الفرش، ثم اتينا بالطعام فأكلنا ثم اتينا بالشراب فشرب معاوية ثم ناول ابي، ثم قال: (اي ابوه) ما شربته منذ حرمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم »[2].

د ـ **إباحة الربا**: ان عدم الإعتناء بالضوابط الدينية من قبل رموز السلطة وارتكابهم المحرمات لم يكن في مجال دون آخر؛ بل ان الجرأة على حرمات الله قد جعلت معاوية لايرى بأساً في الربا، فقد اخرج مالك والنسائي من طريق عطاء بن يسار ان معاوية باع سقاية من ذهب او ورقٍ بأكثر من وزنها، فقال له

---

(١) صفحات من تاريخ كربلاء ص١٦٣(عن مجمع الزوائد).

(٢) احمد النفيس ،على خطى الحسين ،ص٤٦ ، راجع أيضاً: مرتضى العسكري إحاديث ام المؤمنين عائشة ،ج ١،ص٢٩٩ ـ ٣٠٠ .

ابو الدرداء رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذا إلا مثلاً بمثل، فقال له معاوية ما ارى بهذا بأساً».

وروى مسلم في صحيحه ان معاوية غزا غزاة كان فيها عبادة بن الصامت فغنموا فيما غنموا آنية من فضة فأمر معاوية رجلاً ان يبيعها في اعطيات الناس فسارع الناس إلى ذلك فبلغ عبادة بن الصامت فقام فقال اني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن بيع الذهب بالذهب والفضه بالفضة... إلا سواء بسواء وعيناً بعين فمن زاد أو ازداد فقد اربى، فرد الناس ما أخذوه، فبلغ ذلك معاوية فقام خطيباً فقال: ألا ما بال رجال يتحدثون عن رسول الله احاديث قد كنا نشهده ونصحبه فلم نسمعها منه، فقام عبادة بن الصامت فأعاد القصة ثم قال: لنحدثن بما سمعنا من رسول الله ﷺ وان كره معاوية[1].

هذه نماذج من تجاوزات السلطة واستهتارها بالدين وانحرافها عنه، وهذا ما يكشف عن عدم التزامها به إلا بمقدار ما يكون لها ستراً وغطاءاً، بل ابرزنا من خلال ما تقدم سعي تلك السلطة الى اسقاط الدين باسم الدين، لما كان يمثله الدين بصورته النقية ومفاهيمه النبوية من حاجز يحول دون أخذهم بالشهوات وغرقهم في

---

(١) احاديث ام المؤمنين عائشة ج١، ص٢٩٩.

الملذات، فكان لابد من اسقاط الدين عداوة له ولأهله من جهة ومن أجل وصولهم الى دنياهم من جهة اخرى، ولذلك كان لابد من كربلاء وكان لابد من عاشوراء، والتي استطاعت ان تنجز تلك المهمة بكل جدارة وان تفصل بين الاسلام الأموي والاسلام المحمدي ، ليبقى الإسلام حياً نقياً إلى يومنا هذا.

هل كان للعداء والحقد دور في صناعة الأحداث؟

كنا في مقام تعليلنا للأحداث نبرز حقيقة تاريخية مفادها ان المشروع الأموي كان مشروعاً سلطوياً دنيوياً يهدف إلى السلطة بما تعنيه كلمة السلطة من جاه ومال وعز دنيوي، ولذلك واجهوا اهل البيت عليهم السلام ومدرسة الإمامة ادراكاً منهم انه لن تستقيم لهم الأمور دون نيلهم من اهل البيت عليهم السلام ومكانتهم المعنوية والاجتماعية، لكن هنا سؤال مفاده انه الا يمكن ان يكون من جملة تلك الدوافع العداوة للنبي محمد وأهل بيته وعدم تبنيهم للدين كعقيدة ورؤية للحياة، وحقداً منهم على احداث الماضي؟

ان الذي يقرأ تاريخ اركان السلطة الأموية يصل إلى هذه النتيجة انهم قاتلو الإسلام بكل امكانياتهم وحتى الأيام الأخيرة قبل ان تسقط الأمور من ايديهم ويفرض الإسلام سلطانه حيث لم يعد بالإمكان مقاومة هذا الدين، بل إن حسابات المصلحة تقتضي الدخول فيه والسعي للحصول على السلطان والمكاسب من خلال هذا الدين.

وهذا ما نجده في وصية معاوية لإبنه يزيد حيث يؤكد عليه بعدم ترك

الصلاة امام الناس، لكن الحرص على اظهار التمسك بالاسلام والتظاهر بالدين لايمنع من وقوع بعض الفلتات التي تظهر حقيقة النوايا وطبيعة الدوافع والموقف الحقيقي من رسول الله ومن رسالة الاسلام وقد كشف الإمام الحسن عليه السلام عن هذه الحقيقة امام معاوية نفسه إذ انه دعى الإمام الحسن عليه السلام الى بيته ولبى الإمام الدعوة لكن عندما دخل على معاوية وجد عنده عمرو بن العاص والوليد بن عقبة وعقبة بن ابي سفيان والمغيرة بن شعبة فما ان رأوا الحسن حتى بدأوا بالشتم فالتفت الإمام الحسن عليه السلام إلى معاوية وقال له:

اما بعد يا معاوية، فما هؤلاء شتموني ولكنك شتمتني فحشاً ألفته وسوء رأي عرفت به، وخلقاً سيئاً ثبت عليك وبغياً علينا عداوة منك لمحمد واهله[1]....

وهذا ما ظهر بشكل واضح لدى ابنه يزيد فالولد سر أبيه، إذ المشهور عنه أنه لما حضر رأس الإمام الحسين بين يديه جمع اهل الشام وجعل ينكت عليه بالخيزران ويقول:

ليت اشياخي ببدر شهدوا ... وقعة الخزرج من وقع الأسل
قد قتلنا القرن من ساداتهم ... وعدلنا ميل بدر فاعتدل

وقد قال الشعبي ان يزيد زاد على هذه الأبيات:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل
لست من خندف ان لم انتقم ... من بني احمد ما كان فعل[2]

فقضية يزيد هي قضية الإنتقام من آل محمد صلى الله عليه وآله لما فعله

---

(١) الشيعة والحاكمون ص٧١.

(٢) معالم المدرستين ج٢، ص٢٠٢.

رسول الله ﷺ بأجداده الذين كانوا في صف المشركين يقاتلون الرسول.. وبالتالي فقتل آل الرسول هو في مقابل قتل الرسول لأجداده وبني قومه.. وليس بعيداً ان يكون الحقد والإنتقام والثأر من محمد ﷺ وجه من وجوه القضية بل وهذا ما صرح به معاوية نفسه فيما يرويه المطرف بن المغيرة بن شعبة يقول: دخلت مع أبي على معاوية فكان ابي يأتيه فيتحدث معه، ثم ينصرف أبي فيذكر معاوية وعقله او يعجب بما يرى منه، إذا جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء ورأيته مغتماً فانتظرته ساعة وظننت انه لأمر حدث فينا، فقلت مالي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بني جئت من أكفر الناس واخبثهم، قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به: انك قد بلغت سناً يا أمير المؤمنين، فلو اظهرت عدلاً وبسطت خيراً فإنك قد كبرت، ولو نظرت الى اخوتك من بنى هاشم فوصلت ارحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وان ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه؛ فقال: هيهات هيهات! اي ذكر ارجو بقاءه؟ ملك اخو تيم فعدل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلا ان يقول قائل: ابو بكر؛ ثم ملك أخو عدي فاجتهد وشمر عشر سنين، فما عدا ان هلك حتى هلك ذكره، إلا ان يقول قائل: عمر، وان ابن أبي كبشة ليصاح به كل يوم خمس مرات «اشهد ان محمداً رسول الله» فأي عمل يبقى؟ وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أباً لك؟ لا والله إلا دفناً دفناً[1].

اي دفناً لذكر محمد، وهو دعاء على ذكر رسول الله ﷺ؛ ألا يكشف ذلك عن حقد دفين على رسول الله ﷺ وأهل بيته يعود إلى بدر وأحد وسائر المواجهات مع قريش والتي تكللت بفتح مكة والقضاء على الشرك وتحطيم الأصنام؟

---

(١) معالم المدرستين ج٢، ص٣٦٦ ـ ٣٦٧.

وهو ما يمكن أن يستفاد من قول يزيد (وعدلنا ميل بدر فاعتدل) وهذا يؤكد ان المواجهة مع اهل البيت عليهم السلام هي في الحقيقة مواجهة مع الدين ومع سنة الله ورسوله ،وهذا ما كان يهدد تلك الإنجازات التي كان قد حققها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المستوى الديني وغير الديني، أي ان الدين والمعرفية الدينية قد كانا في خطر وهذا ما حدا بالأئمة عليهم السلام الى مواجهة المشروع الأموي وبالإمام الحسين عليه السلام الى تقديم نفسه واهل بيته وأصحابه من اجل قضية الإصلاح عامة والإصلاح الديني بشكل خاص.

حصاد ونتائج

١ ـ ان قراءة تجربة الثورة الحسينية والوصول إلى هذه النتيجة بان السلطة الأموية التي كانت قريبة عهد بحياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد عملت على اختراق تراث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسنته من خلال علماء البلاط وتجار الرواية من اجل تشكيله بطريقة تنسجم ومصالحها؛ ان هذه النتيجة تؤكد علينا ان نعيد قراءة التراث الديني والإسلامي آخذين بعين الإعتبار ان العامل السلطوي كان له أكثر من اثر في تكوين ذاك التراث، مما يؤكد علينا ضرورة تمحيصه والتدقيق فيه من أجل ان نكتشف النصوص السلطوية التي عملت السلطة على انتاجها وزرعها في مفاصل ذاك التراث، وان نستحضر من جديد تلك النصوص التي همشتها السلطة او عملت على تحييدها او تأويلها بغية ابعاد مفعولها عن المساهمة في تشكيل الوعي السياسي والإجتماعي للمجتمع الإسلامي.

ان الدعوة التي أود تسجيلها هنا هي دعوة منهجية بمعنى ان نأخذ بالحسبان في المنهجية المعتمدة لقراءة التراث الديني احتمال دخالة السياسي بشكل أو بآخر في هذا النص او ذاك ،من اجل ان نؤسس لعملية تنقية التراث الإسلامي من الرواسب السلطوية، التي اضفت عليها السلطة هالة من القداسة لمصالح آنية ومحدودة، لكن اثرها

التخريبي ما زال مستمراً الى الآن.

٢ ـ ان من يتحدث عن عدم الحصيلة المهمة للثورة الحسينية يحتاج إلى قراءة دقيقة لتلك الثورة آخذاً بعين الإعتبار ـ فيما يجب ان يأخذه ـ ذلك البعد الإصلاحي الديني للثورة وذلك الهدف المعرفي ـ الديني والذي هو هدف اساس ومهم، إذ ان من نتائج حركة الإمام الحسين عليه السلام وشهادته انها حطمت تلك الواجهة الدينية التي كانت تتلطى السلطة خلفها وقضت على اي اثر لكل تلك الصناعة المعرفية التي جهدت السلطة على انتاجها لتسهم في نسج الوعي الإسلامي العام.

ان السلطة الأموية قد استعانت ببعض الرموز الدينية لتعطي لباساً دينياً لثقافتها المنحرفة ـ ثقافة السلطة ـ لكن مع اقدامها على قتل الإمام الحسين عليه السلام سبط الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي جعله الرسول إماماً وهادياً؛ لم يعد يجديها اي تبرير ديني او ينفعها اي تستر، لقد سقطت دينية السلطة وسقط كل تنظير لمشروعيتها الدينية، وبان بشكل لالبس فيه ان تلك السلطة لا تقيم اي وزن للدين وحرماته لان سلطة تقتل سبط الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحبيبه لايمكن ان تكون سلطة دينية، وعليه فان من النتائج المهمة جداً لشهادة الإمام الحسين عليه السلام هو افقاد السلطة الأموية سلاحاً هاماً كان في يديها ألا وهو سلاح الديني والمعرفية الدينية، والا لولم تفقد السلطة هذا السلاح الخطير لكان حجم الأضرار والمفاسد كبيراً وخطيراً أكثر من الخطر والضرر المترتب على وجود السلطة نفسها، إذ ان السلطة يزول اثرها بزوالها لكنها إذا تركت تراثاً منحرفاً وفاسداً باسم الدين فإن تلك المفاسد ستستمر باستمرار ذلك التراث او باستمرار آثارها وبصماتها عليه.

٣ ـ إن تجربة السلطة الأموية هي نموذج لتلك السلطة التي تسعى دوماً لزيادة سلطتها وقوة نفوذها من خلال اضافة بعض العناصر السلطوية إلى

سلطتها المملوكة، والمقصود بالسلطة هنا هو معناها العام الذي يتسع لكل ما من شأنه ان يمارس تأثيراً في الوسط الإجتماعي والسياسي. وعليه فإن تلك السلطة عندما تجد مؤسسة ما او منظومة ما او عقيدة تمتلك ذلك التأثير فإنها تكون امام خيارات، فإما ان تصطدم بتلك السلطة المنافسة في محاولة منها لإبعاد خطر تأثيرها، او ان تعمد الى احتوائها والسيطرة عليها او في الحد الأدنى الإستفادة منها بالقدر المطلوب، لكن لاشك ان الخيار الآخر إذا كان متاحاً فسيكون الخيار الأفضل في حسابات السلطة.

ان قوة تأثير الدين في الوسط الإجتماعي والسياسي كان ولايزال يمثل مشكلة جدّية للسلطة الحاكمة ـ تلك السلطة المصابة بالنزعة الإحتكارية ـ وهي ستسعى إلى احتواء تأثير الدين والى الإمساك بزمام السلطة الدينية او محاولة الإستفادة منها بمستوى او آخر ،و خصوصاً إذا كان هناك علاقة وثيقة بين السياسي والديني، عندها سيكون من الضروري الحصول على المشروعية الدينية من اجل الحصول على المشروعية السياسية او من اجل الاستقواء السياسي، ان هذه المعادلة توضح جدلية العلاقة بين السياسي والديني التي يمكن ان نراها بوضوح في التاريخ السياسي الأموي الذي يمثل حقلاً خصباً لتلمس كل مظاهر تلك الجدلية وآلياتها من اجل تقديم رؤية واضحة وكاملة لها، لانها ليست حكراً على التجربة الأموية بل هي في كل زمان نجد فيه تعدد في السلطات ـ التأثير ـ فعندما تجتمع السلطة السياسية والسلطة الدينية في ميدان واحد سنجد تمظهراً لتلك الجدلية، وسنجد من طرف السلطة السياسية اما قبولاً بالسلطة الدينية او رفضاً لها او محاولة للإستفادة منها بأي شكل من الأشكال،أما من طرف السلطة الدينية فسنجد اما ممانعة او مسايرة او استعداداً لعقد صفقات قد يتم فيها حتى تجاوز الدين نفسه.

ان المجتمع عامة يحتاج الى ادراك تلك الجدلية ووعيها حتى يمتلك القدرة على التمييز بين سلطة سياسية تعترف لسلطة اخرى بوجودها وتحترم تأثيرها وتكون على استعداد للتعايش معها ،وبين سلطة سياسية لاتعترف بوجود سلطة اخرى، وهي في افضل الاحتمالات تسعى الى تجييرها لصالحها والإمساك بزمامها، او ان خيار مواجهتها والقضاء عليها يكون وارداً.

كما انه يحتاج الى التمييز بين سلطة دينية ـ أو رموز دينية ـ تحافظ على مبادئها وقيمها الدينية وتكون على استعداد للذهاب الى ابعد مدى في عطائها وتضحياتها احتراماً لعقيدتها وصوناً لرسالتها، وبين سلطة دينية ـ أو رموز دينية ـ تكون على استعداد للتخلي عن تلك المباديء والقيم لقاء مكاسب دنيوية، بل ربما تقبل حتى بتحريف الدين نفسه والدس فيه إذا بذل لهم ما يرغب في مثله كما شهدنا في تلك التجربة المعبرة التي دونتها السلطة الأموية في سجل التاريخ.

٤ ـ ان تعرض الدين لخطر الإنحراف وتراث رسول الله ﷺ للضياع يتطلب في بعض الأحيان الكثير من التضحيات قد تصل إلى حد تقديم الأنفس والأموال في سبيل حفظ هذا الدين وحمايته من الفساد والإنحراف، كما حصل مع الإمام الحسين عليه السلام، إن حاجة الدين لمثل تلك التضحيات الجسيمة هي بمثابة اختبار لمعادن الرجال وبها تعرف الأحوال؛ ففي مثل ذلك الظرف العصيب حيث أخذت السلطة الأموية تحطم الدين باسم الدين وتنتهك شريعة رب العالمين، عندها يعرف من يملك الغيرة اكثر على الدين ومن يكون مستأمناً على حمايته وحفظه بل ويكون مستعداً للتضحية من اجل صونه من أيادي الفساد والإنحراف.

إن حرب السلطة الأموية على الدين استطاعت ان تكشف من هم الوارثين فعلاً لرسول الله ﷺ ،ومن هم الذين كانوا حريصين على تراثه وجهده وجهاده حتى لا تدوسه عجلة السلطة.

ان حادثة كربلاء رغم كل تلك المآسي التي تركتها وما حدث فيها وبعدها فإنها اثبتت ان مدرسة اهل البيت عليهم السلام هي التي كانت معدة ومعينة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقيادة المشروع الإسلامي على كافة المستويات، وما كان خروج الإمام الحسين عليه السلام إلا بدافع من الدين ومن اجل هذا الدين نفسه، ولذلك صدق من قال ان الإسلام محمدي الوجود وحسيني البقاء، لإن حسيناً من محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم من حسين وكلهم من اهل بيت واحد صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين.

٥ ـ ان المدرسة التي خرج قادتها من اجل حماية الدين وحفظه وكان جل اهتمامها وجهدها وجهادها من اجل ان يصل الدين الينا سليماً من اي انحراف، والتي واجهت عمليات الوضع وتجار الحديث وسماسرة الرواية لنمسك بإرث رسول الله خالياً من عبث السلطة؛ إن هذه المدرسة عندما جهدت من اجل ان يصل إلينا الدين بتلك الصورة النقية وعملت على نقل تراث رسول الله خلفاً بعد سلف، فهذا يعني انها المدرسة التي يمكن الركون إليها أكثر والاعتماد عليها أكثر والوثوق أكثر بما نقلته بعنوان كونه مأخوذاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ ان مدرسة تجعل من أولى اهتماماتها حفظ ذلك التراث وتقدم الغالي والنفيس من اجل وصوله الينا سليماً ويستشهد قائد من قادتها في سبيل ذلك ـ وهو الإمام الحسين عليه السلام ـ لهي المدرسة التي يمكن الإطمئنان أكثر الى تلك الأمانة التي حملتها طيلة عقود من الزمن حتى تسلمنا اياها، واعني بتلك الأمانة ذلك الرصيد الروائي المنقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذي له دور أساسي ومهم في شرح الدين وتبيين مفاهيمه وتحديد احكامه؛ ان حادثة كربلاء تفصح عن حقيقة هامة ألا وهي ان المادة الروائية التي نقلها أئمة اهل البيت عليهم السلام يجب ان تأخذ دوراً اساسياً في صياغة المفاهيم الدينية وانتاج كل الأحكام التي ترتبط بالدين من قبل كل

المسلمين ،والا يتم حصر تلك المادة في اتجاه اسلامي محدد بحيث تُحرم منها بقية الإتجاهات الاسلامية، لأن تراث رسول الله ﷺ الروائي ليس لمذهب دون آخر بل هو لجميع المسلمين ومن حقهم بل عليهم ان يستفيدوا منه.

٦ ـ في مقابل تلك النزعة الإحتكارية للسلطة السياسية فإن النص الديني يملك من عناصر الحصانة ما يحول دون تحول المؤسسة الدينية ورموزها الى ادوات بيد تلك السلطة لتحركها في الإتجاه الذي يخدم مصالحها.

ان ذلك الجانب من النص الديني الذي يحصن اداء المؤسسة الدينية ويزرع فيها بذور الممانعة، ان هذا الجانب يجب تفعيله بأن يؤخذ من النص الديني ويعمل على انشاء خطاب يعتمد تلك المادة من النص، وان يعمل على تكوين ثقافة مستمدة من ذلك النص لتكون ثقافة الممانعة في مقابل جنوح السلطة ومغرياتها.

ان هذه الثقافة يجب ان تكون عنصراً أساسياً في المادة المعرفية التي تستهلكها تلك المؤسسة، فضلاً عن ان النص الدينى بطبيعته وبهدفيته يأخذ إلى عالم الغيب وهو وإن كان يسبح في عالم الدنيا ويشرع لها ولا يهمشها، لكنه يجعل منها ممراً إلى الآخرة والى رضوان الله.

ومع ذلك فإن قسماً من ذلك النص قد توجه مباشرة لعلاج قضية العلاقة مع السلطة ـ الدنيا، وقال إذا رأيتم العلماء على ابواب الحكام فبئس العلماء وبئس الحكام، وحذر من حب الشهرة ومن طلب الجاه والسمعة، وليس لديكم ما نرجوه ولالدينا ما نخاف منكم عليه...

ان المؤسسة الدينية ـ برموزها واشخاصها ـ يجب ان تكون تعبيراً عن ذلك النص ،والنص يجب ان يتجلى فيها ومن خلالها، ويجب ان تحكي النص وتحكي عنه، بل ان دينيتها هي بمقدار ما تكون معبرة عنه ومجليّة له.

ولذلك فإن ثقافة الممانعة واخلاقية الحصانة وعلو الجانب امام دنيا

السلطة وسلطة الدنيا، كل ذلك يجب ان يكون واضحاً في سلوك تلك المؤسسة وماثلاً في ادائها، اما إذا وجدنا بوناً بين ما يحكيه ذلك النص وما تفعله تلك المؤسسة فبئس العلماء وبئس مؤسستهم.

٧ ـ عندما نكتشف وجود مؤسسة دينية سلطوية ووجود تشكيلة من علماء البلاط وخصوصاً اولئك الذين تعاونوا وتعاملوا مع السلطة الأموية، يجب عندها ان يكون لإنخراط أحد الرواة في تلك التشكيلة نتيجة سلبية في ميزان الجرح والتعديل، وان يتم التعامل مع روايته بحذر شديد لأن قبوله بالإنضمام إلى تلك المؤسسة التي تُستغل ويستفاد من رموزها من اجل الافساد الديني وتخريب المفاهيم الدينية هو بمثابة علاقة سلبية في ميزان الجرح والتعديل، بل إن مجرد الانضمام الى أي من مؤسسات تلك السلطة ـ والتي هي سلطة منحرفة عن الدين وتعمل على محاربته ـ يجب ان يؤخذ على اساس انه مؤشر سلبي بحق ذاك الراوي.

ان مجموعة من نقلة الرواية كانت لهم علاقات وطيدة مع السلطة الأموية بل إن البعض منهم تزعم بعض اعمالها إن هؤلاء قد نقلوا إلينا كماً من الروايات التي تفرض علينا الدقة والموضوعية دراسة روايتهم بمنهج مختلف ولربما يكون لصدقية وصفهم بالسلطوية نتيجة سلبية على مجمل رصيدهم الروائي.

٨ ـ ان الإمام الحسين عليه السلام في الوقت الذي استطاع بدمائه ان يحفظ الدين، وان يعطي بشهادته القوة والدفع لمدرسة اهل البيت عليهم السلام وان يحطم المدرسة الفكرية للحزب الأموي؛ فإنه استطاع ان يحقق انجازاً آخر عظيماً لا تقل عظمته عن عظمة ذلك الإنجاز في عصره الا وهو ترسيخ نهج الإستشهاد في سبيل الحفاظ على الدين، ومن اجل استمراره نقياً سليماً من اي انحراف حتى يصل الى جميع الناس لم تدخله بدعة ولم تعتريه شبهة لايؤثر فيه وضع واضع او يخترقه كذب كاذب.

لقد استطاع الإمام الحسين عليه السلام بشهادته ان يرسخ في وعي الأمة قيماً ساهمت وتساهم في استمرار هذا الدين، ان قيماً كالغيرة على الدين والتضحية من اجل العقيدة و الاستشهاد في سبيل مقاومة الفساد والإنحراف؛ هي قيم دخلت في صميم وعي المسلمين وتجذرت في نفوسهم وألفت قناعاتهم.

ان هذا النهج الذي اعطته شهادة الحسين عليه السلام رونقاً خاصاً، واضافت اليه عاشوراء اكثر من معنى هو صمام امان اساسي وعامل مهم من اجل استمرار الروح الدينية حية دفّاقة في وعي المسلمين ووجدانهم.

٩ ـ في معرض نقاشنا لمن يقول بعدم الحصيلة المهمة لثورة الإمام الحسين عليه السلام نستطيع ان نقول بنتائج اساسية ومهمة لتلك الثورة ولوعلى المستوى البعيد والاستراتيجي، لقد تحدثنا عن نتائج مهمة على مستوى المعرفية الدينية فيما يرتبط بالحفاظ على الدين واسقاط المشروعية الدينية وبالتالى السياسية عن السلطة الأموية، ولا شك ان هذ النتيجة قد ادت الى ضعف تلك السلطة والى التمهيد لاسقاطها بعد عقود من الزمن.

واستطاع الإمام الحسين عليه السلام ان يشق طريق المواجهة مع السلطة الأموية من خلال تعريتها وفضحها بالكامل، ومن خلال كسر حاجز الخوف وتحريك ارادة الأمة التي وهنت وبعث عزيمتها التي خمدت، وهو ما ادى الى حصول ثورات متتابعة ومتلاحقة كثورة المختار والتوابين التي ساهمت كل منها في اضعاف السلطة الأموية وفي تقريب اجل سقوطها.

فضلاً عن كل ذلك يمكن لنا ان نشير الى نتيجة من نتائج الشهادة لاتقل اهمية عما عداها، هذه النتيجة التي ساهمت بدورها في اضعاف السلطة وزرع شعور النقمة عليها، وهو ما عبر عنه يزيد عندما قال ان قتل

الحسين عليه السلام قد كرّه المسلمين به[1].

إن مكانة الحسين عليه السلام كانت معلومة عند المسلمين انه سبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وابن فاطمة الزهراء عليها السلام وأمير المؤمنين علي بن ابي طالب، وانه من قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه سيد شباب اهل الجنة ،وانه امام قام او قعد . . . ولذا فإن اقدام السلطة على قتل ريحانة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسبطه الوحيد في ذاك العصر وبتلك الطريقة المأساوية، قد أدى إلى ردة فعل شعورية متعاطفة مع قضية الحسين عليه السلام وناقمة على قاتليه وعلى الذين ارتكبوا تلك المأساة الرهيبة التي ادمت قلوب المسلمين وصدمت وجدانهم، فهاجت المشاعر حقداً وكرهاً ونقمة على السلطة واعوانها؛ في الوقت الذي استطاعت العاطفة ان تخلد قضية الحسين عليه السلام وان تحافظ عليها حية وحارة في قلوب المؤمنين فإن شعور النقمة والكره لرموز الجريمة وادواتها ساهم ويسهم في عزل واقصاء كل ما يرتبط بالسلطة ،إن نظرة المجتمع الاسلامي بعين الكره للسلطة الأموية قد اجج مشاعر العداء نحوها تلك المشاعر التي استفحلت اكثر بسبب الجرائم المتتالية التي كانت ترتكب من استباحة المدينة الى هدم الكعبة الى القتل على التهمة واظهار العداء لآل بيت النبي عليهم السلام . . . ان كل ذلك ادى الى زرع العداوة في قلوب المسلمين بالنسبة الى الأمويين، هذه العداوة التي كانت تنفجر بين حين وآخر ثورة هناك ،وثورة هناك الى ان قضت على سلطانهم وابادتهم ولم تبق لهم من ذكر إلا لذاكر متعظٍ او داعٍ عليهم بالويل والثبور او لاعن لأهل الظلم ومن اعانهم وشايعهم ورضي بفعلهم .

---

(١) الأمويون والخلافة ، ص٩٣ .

فهرس

مقدمة الكتاب ٧
مدخل ١٣
الإصلاح في اللغة: ١٧
مفهوم الإصلاح الديني: ١٧
الإصلاح في القرآن الكريم: ٢٠
الإصلاحي الأعظم: ٢٤
الإصلاح الديني في تجربة الإمام علي عليه السلام : ٢٨
الاصلاح الديني في تجربة الإمام الحسن عليه السلام : ٣٥
الإصلاح الديني في تجربة الثورة الحسينية: ٣٧
١ ـ الهدف ايقاظ ارادة الأمة: ٣٨
٢ ـ الهدف الوصول إلى الحكم: ٣٩
٣ ـ الهدف نزع المشروعية السياسية والدينية عن السلطة الأموية: ٤٠
هل كان الإمام الحسين عليه السلام يعلم بشهادته؟ ٤٤
تحليل لأهداف الثورة: ٤٦
الإصلاح الديني في رؤية الإمام الخميني والقائد الخامنئي: ٥١
الاصلاح الديني في رؤية الشهيد المطهري: ٥٣
المعرفي والسياسي لدى اركون: ٥٩
المعرفي والسياسي لدى الجابري: ٦١
إضاءة على حقيقة تارخية: ٦٣
المؤسسة الدينية السلطوية: ٦٧

الأدوات المعرفية للسلطة: ٦٩
١ ـ الحديث: ٦٩
٢ ـ التفسير: ٧٠
٣ ـ علم الكلام: ٧١
المشروع المعرفي الثقافي للسلطة: ٧٢
١ ـ تحطيم المدرسة المعرفية والفكرية لأهل البيت عليهم السلام : ٧٤
أ ـ اختلاق الأحاديث لذم علي عليه السلام : ٧٥
ب ـ شتم الإمام علي عليه السلام وسبه : ٧٩
جـ ـ لعن الإمام علي عليه السلام : ٨٢
٢ ـ المدرسة الفكرية للسلطة الأموية : ٨٤
١ ـ حرمة الخروج على الحاكم الظالم والجماعة الضالة : ٨٥
٢ ـ رفع المكانة المعنوية والعلمية لرموز مدرسة الخلافة : ٩٠
٣ ـ نظرية عدالة الصحابة : ٩٢
٤ ـ الجبر : ٩٤
٥ ـ الإرجاء : ٩٩
٦ ـ الأخذ بثقافة اهل الكتاب والترويج لها : ١٠١
٧ ـ عدم الاعتناء بالضوابط الدينية : ١٠٣
هل كان للعداء والحقد دور في صناعة الأحداث؟ ١٠٧
حصاد ونتائج ١١٠